İ.Ü. İlahiyat Fakültesi Dergisi

Güz 2018 / 9(2) 197-229

الاستبداد الديني والفكري في الشعر الجاهلي

Mustafa KIRKIZ *

Yassin JAMOUL[**]

الملخص: الاستبداد هو الانفراد بالسلطة مما يجب فيه الاشتراك والمشورة، وغلبة الآخرين وقهرهم والتسلط عليهم، وانتزاع ما في أيديهم بغير حق.

والاستبداد واسع الطيف يدخل شتى مناحي الحياة، ويمكن أن يكون في أي منها، فالاستبداد لا يكون سياسياً فحسب، بل في السياسة وفي الاقتصاد، وفي الفكر والدين، وفي المجتمع.

فإن كان من حق المرء أن يدين بالدين الذي يريد، وأن يقول ما يحب، وينتهج الفكر الذي يوافقه فإن هذا الحق قد تتم مصادرته؛ فيُحارب في دينه ومعتقده ويُؤذى ليكون على دين يريده له الحاكم أو الزعيم المستبد. وكذلك يصادر حقه في الفكر والتعبير، فإن كان قائلاً شعراً أو نثراً فيجب ألا يخرج عما يوافق الحاكم في الدولة أو الزعيم في القبيلة.

وهذا التسلط على الناس في معتقداتهم ليكونوا على ما يريده المستبد، وفي أفكارهم ومشاعرهم وآرائهم هو المقصود بالاستبداد الديني والفكري.

وإن كنا بهذا المفهوم نراه في حياتنا المعاصرة فقد كان في الجاهلية، وكانت له صوره التي جاءت من حياتهم.

كانت جزيرة العرب على مذاهب مختلفة في الدين، ولم تعرف الاستبداد الديني الذي عرفته أوربا واشتهر بالاستبداد الكنسي، حتى كانت الدعوة الإسلامية فبطشوا بالمسلمين وآذوهم.

لكن العرب في جاهليتهم عرفوا ألواناً شتى من الاستبداد الفكري، وأبرز حملة الفكر في الجاهلية هم الشعراء، فعانوا من الاستبداد ودفعوا ثمن الكلمة الحرة، من ذلك النفي عن الوطن أو السجن والتعذيب وقد يصل الأمر للموت، كل ذلك إن خرج شعرهم بما لا يهوى الحاكم المستبد.

الكلمات المفتاحية: استبداد, فكر, شعر, الجاهلية, دين

Cahiliye Şiirinde İnançsal ve Fikirsel Despotizm Örnekleri

Özet: Despotizm, yönetimde katılım ve istişare olması gerektiği halde, başkalarına galip gelen, onlara tahakküm edip baskı kuran ve haksız yere onların ellerinde olanı ele geçiren yönetimde tekelleşmedir.

* Doç. Dr. Bingöl Üniversitesi, İlahiyat Fakültesi, Arap Dili ve Belagatı Ana Bilim Dalı

** Bingöl Üniversitesi Sosyal Bilimler Enstitüsü Arap Dili ve Belagatı Ana Bilim Dalı Doktora Öğrencisi

İstibdad; yaşamın çeşitli alanlarına girecek kadar geniştir ve bunlardan herhangi birinde ortaya çıkabilir. Öyleyse otokrasi sadece politik değil, aynı zamanda siyasi, ekonomik, düşünce, din ve toplumda da kendini gösterir.

Dilediği herhangi bir dine inanma ve dilediğini ifade etme özgürlüğü bulunan kişi, bu yönetimde kontrol altına alınır, onun dini ve inancıyla savaşılır, yöneticinin veya otoriter liderin arzuladığı dine girmeye zorlanır. Kişinin düşünce ve ifade özgürlüğü elinden alınır. Sözgelimi kişi, şiir söyler ya da bir nesir inşa etse devlete hükmeden yöneticinin ya da kabile liderinin görüşlerinin dışına çıkmaması gerekir.

Dini ve düşünsel baskıdan kastedilen asıl husus, insanların inançları, düşünceleri, değer yargıları ve görüşleri konusunda zorba yöneticinin istediği gibi olmaları için yapılan baskıdır. Biz, bu anlamıyla cahiliye döneminde ve o dönemin insanlarının yaşamında çeşitli şekilleriyle var olan bu baskıyı çağdaş hayatımızda görmekteyiz.

Arap Yarımadasında farklı dinler bulunuyordu. Bunlar, Avrupa'nın, kilise baskısı diye meşhur olan dini despotizmi ve dini baskıyı bilmiyorlardı. fakat islami daveti ortaya çıkınca Müslümanlara baskı kurup onlara eziyet ettiler.

Ancak cahiliye döneminde Araplar, birtakım düşünce despotizmini biliyorlardı. Cahiliye döneminde fikir hareketlerini ortaya koyup öncülük eden şairlerdi. Bu nedenle onlar, istibdattan çok çekti, yurdundan sürülmek ve hapsedilmek, işkence görmek hatta ölüme varan bedeller ödediler. Bütün bunlar, şiirleri despot yöneticinin hoşuna giden alanların dışına çıkınca oldu.

Anahtar Kelimeler: Despotizm, düşünce, şiir, Cahiliye, din.

Models of Religious and Intellectual Despotism in Pre-Islamic Poetry

Abstract: Tyranny is the takeover of power when there must be collaboration and advice. It is also the predominance on others, to compel and dominate them and to extort what is their right.

Tyranny is a broad concept, enters all life aspects, it is not only in politics but also in economy, thinking, religion and society.

Although it is one's right to believe the faith he wants, or to say what he likes, and pursue the thought he prefers, still tyranny will confiscate this right, and will fight his belief, and faith; consequently, the person is harmed to believe in what the governor or the autocrat leader believes. This extends to confiscate the right to write and think, so if he is a poet or a writer he is not allowed to write whatever he wants but only what the governor agrees on.

This tyranny, which force people to think, feel and believe as the autocrat wants, is what so called the religious and thought tyranny.

If we see this in our modern life, it also was there in the ignorant age, with its aspects that came from their life.

Although the Arab peninsula had different doctrines, they did not know the tyranny which spread through Europe which known by Ecclesiastical dominion, until Islam has come when they abused Muslims.

But Arabs had known many of thinking tyranny. Best known thinkers were the poets, they suffered of tyranny and paid a high price for the free word they said like denial, prison, torture moreover death, this happened because they said poetry that was not what the autocrat approved.

Key Words: Despotism, Thought, Poetry, Pre-Islam, Belief.

مقدمة:

يتردد كثيراً في العصر الحاضر مصطلح (الاستبداد)، وتزدحم الصفات التي تُلصق به، فمن قائل: الاستبداد الأسريّ، إلى قائلة: الاستبداد الزوجيّ، وثالث يصرخ: استبداد سياسي، ورابع يُنفى أو يُسجن أو يُقتل وهو يصيح: استبداد فكري، وآخر يُذبح لنجد أنه من ضحايا الاستبداد الديني.

فنجد أنفسنا أمام أنواع كثيرة للاستبداد، دون تمييز أي منها هو الأصل فيه وأيُّها جاءت فرعاً أو تقليداً للأصل.

ومن المعلوم أن الكلمةَ سلاحٌ قديماً وحديثاً، وهي عند الشاعر أمضى وأفتك، ولا يغيب عنا ما كان للشاعر قديماً في قومه من المكانة؛ كل ذلك لأنه يجيد استعمال سلاح (الكلمة).

مع أنه لا يغيب كذلك كم كان هذا السلاح (الكلمة) سبباً في مقتل فلان من الشعراء، وسجن فلان وتعذيبه، أو طرده خارج أرضه ونفيه عن وطنه. ومن الشعر القديم:

وَالنّاسُ شَتّى فِي الْهَوَى كَالْمَرْءِ مُخْتَلِفٌ بَنَانُهْ
وَالصّدْقُ أَفْضَلُ شِيمَةٍ وَالْمَرْءُ يَقْتُلُهُ لِسَانُهْ

فما هو الاستبداد؟ وهل هو مصطلح معاصر أو أن له في التراث أصلاً كما نفهم من جذره اللغوي؟ وما هي أنواعه قديماً وحديثاً؟ وأيّ تلك الأنواع عرفتْها جزيرة العرب في الجاهلية؟

والشعر مرآة المجتمع بكل ما فيه، فإن كان جاء في الشعر الجاهلي شيءٌ من صور الاستبداد فهو كذلك، ولا ندري فربما كانت ضريبةُ الشاعرِ دمَه أو حريتَه لأنه أبلغ مَن وراءه بما كان مِن الاستبداد، فحقيقٌ بهذه الكلمات الحرّة أن تُكرَّم عن أصحابها الذين قضوا شهداء لها.

لكن أن يكون في الحكم والسلطة استبداد، فيتفرّد الحاكم بالأمر والنهي دون شورى، ويضيّق على الرعية فلا يثوروا في وجه استبداده وظلمه؛ فذاك أمر لا غرابة أن يكون في الجاهلية، لاسيما ونحن نعيشه في كثير من الدول ونحن في القرن الحادي والعشرين، لكن كيف يكون الاستبداد في الفكر؟ وما معنى أن يقع الاستبداد بسبب الدِّين؟ وهل من شواهد في شعر العرب الجاهليين تؤكد ذلك؟

هذه جملة تساؤلات يحاول البحث الإجابة عنها بمنهج تاريخي تحليلي، من خلال دراسةٍ في دواوين من الشعر العربي الجاهلي لشعراء وشواعر مختلفين، صوّر كل منهم بكاميرا شعره العالية ما صوّر، فبقيت لنا الصور وإن قضى أصحابها، لننظر فيها ونعرف كيف كانوا وما الذي عانَوا لتصل إلينا.

تعريف الاستبداد لغةً واصطلاحاً

نرجع بمصطلح (الاستبداد) إلى جذره (بدد) لنجد المعاجم العربية القديمة تطالعنا بالآتي:

جاء في كتاب العين: (والتَبَدُّد: التَفَرُّق، وذَهَبَ القَومُ في الأمر بَدادِ بَدادِ، أي: تَفَرَّقوا. واستَبَدَّ فلان برأيه، أي: انفرَدَ بالأمر)[1]. ونحوه في تهذيب اللغة للأزهري(370 ه)[2]، وفي تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري(393 ه)[3].

وقال ابن فارس (395 ه): (بَدَّ: الْبَاءُ وَالدَّالُ فِي الْمُضَاعَفِ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ التَّفَرُّقُ وَتَبَاعُدُ مَا بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ. يُقَالُ: فَرَسٌ أَبَدُّ، وَهُوَ الْبَعِيدُ مَا بَيْنَ الرِّجْلَيْنِ. وَبَدَّدْتُ الشَّيْءَ: إِذَا فَرَّقْتُهُ. فَإِنْ سَأَلَ سَائِلٌ عَنْ قَوْلِهِمْ: لَا بُدَّ مِنْ كَذَا، فَهُوَ مِنْ هَذَا الْبَابِ أَيْضًا، كَأَنَّهُ أَرَادَ لَا فِرَاقَ مِنْهُ، لَا بُعْدَ عَنْهُ. فَالْقِيَاسُ صَحِيحٌ. وَقَوْلُهُمْ: مَا لَكَ بِهِ بَدَدٌ، أَيْ: مَا لَكَ بِهِ طَاقَةٌ)[4].

وقال الزمخشري (538 ه): (واستبدَّ برأيه: انفرد، واستَبدَّ بأميره: إذا غلبَ على رأيه فهو لا يسمع إلا منه. ومن المجاز: استبدَّ الأمرُ بفلانٍ: إذا غلبَه فلم يقدر على ضبطه. قال الأخطل[5]:

ثم استَبَدَّ بسَلْمَى نِيّةٌ قَذَفٌ وَسَيرُ مُنْقَضِبِ الأقرَانِ مِغْيَارِ

واستُبِدَّ بهم: إذا ذهبُوا)[6].

قال نشوان الحميري (573 ه): (اسْتَبَدَّ برأيه، أي: انفرد به. يقال: مَن استبدَّ برأيه ضلَّ. ويُروى: أن الأصمعي كان يُبغض البرامكة بغضاً شديداً، فلعب يوماً بالشِّطْرَنْج مع هارون الرشيد، فقال الرشيد: واللّهِ لأقتلنَّك يا أصمعي، أي: لَأغلبنَّك في الشِّطْرَنْج، فأنشد الأصمعي مُعرِّضاً له في البرامكة[7]:

لَيْتَ هنْداً أَنْجَزَتْنا ما تَعِدْ وشَفَتْ أَنْفُسَنا مِمّا تَجِدْ

واسْتَبَدَّتْ مَرَّةً واحِدَةً إِنَّما العَاجِزُ مَنْ لا يَسْتَبِدّ

---

[1]– كتاب العين: الفراهيدي، تحقيق: د.مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي، دار الهجرة، قم، إيران، 1405هـ. 14/8

2– تهذيب اللغة: الأزهري، تحقيق: عبد السلام هارون، نسخة مصوّرة، د.ت: 77/14

3– تاج اللغة وصحاح العربية: الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1990م: 2/ 444، ونحوه في: لسان العرب والقاموس المحيط وتاج العروس: مادة بدد.

4– مقاييس اللغة: أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، نسخة مصورة بدار الجيل، بيروت، د.ت: 1/ 176.

5– شعر الأخطل: صنعة السكري، تحقيق: فخر الدين قباوة، دار الفكر – دمشق، ط4، 1996م: 123. قال السكري شارحاً: (استبدّ بها: غلب عليها وذهب بها). والنية: الوجهة التي يقصدون، والقذف: البعيدة، ومنقضب: منقطع، والأقران جمع قَرَن: وهو الحبل، يريد بمقضب الأقران زوج سلمى، فالبعير يسبق أقرانه فتنقطع دونه الحبال، ومغيار: شديد الغيرة.

6– أساس البلاغة: الزمخشري، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1419هـ – 1998م: 32.

7– البيتان من شعر عمر بن أبي ربيعة، وهما في ديوانه: تحقيق محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، 1960م: 320.

ففهمَ الرشيدُ مراد الأصمعي، فقال: واللّه لأستبدَّنّ واللّه لأستبدنّ، ثلاثاً، فما لبث البرامكة إلا قليلًا حتى قتلهم.
وأصل استبدَّ: اسْتَبْدَدَ يَسْتَبْدِدُ فهو مُستبدِدٌ، بإظهار التضعيف، فأدغم. وكذلك نحوه من المضاعف)[1].
وقال ابن الأثير (606 هـ): (وَفِي حَدِيثِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كُنَّا نَرى أَنَّ لَنَا فِي هَذَا الْأَمْرِ حَقًّا فَاسْتَبْدَدْتُمْ علينَا»، يُقَالُ: اسْتَبَدَّ بِالْأَمْرِ يَسْتَبِدُّ بِهِ اسْتِبْدَاداً: إِذَا تَفَرَّد بِهِ دُون غيره. وقد تكرر في الحديث)[2].
ومن شرّاح الأحاديث أيضاً بدر الدين العيني (855 هـ) يقول: (قَوْله: استبددتَ، من الاستبداد: وَهُوَ الِاسْتِقْلَال بالشَّيْء)[3]. وقال في موضع آخر يشرح الأثَرَة: (استبداد واختصاص بالأموال فِيمَا حَقه الِاشْتِرَاك)[4].
قال ابن سيده (458 هـ): (المشاورة والاستبداد: أبو زيد: استبدّ بِرَأْيِهِ: انْفَرَد. أَبُو عبيد: عَكَلَ يَعكِل عَكْلاً: استبدّ بِرَأْيِهِ.. وَقَالَ: رجل سُكاكة فِي رجال سُكاكات وَهُوَ: الَّذِي يمْضِي لرأيه لَا يشاور أحداً وَلَا يُبالي كَيفَ وَقع رَأْيه)[5].

وإن نظرنا في المعاجم اللغوية المعاصرة التي وقفت عند مادة (بدد) نجد: (استبدَّ يستَبِدّ، استَبْدِدْ، استبدادًا، فهو مُستبِدّ، والمفعول مُستبَدّ به. استبدَّ الشَّخصُ بالأمر: تعسَّف، انفرد به مِن غير مُشاركٍ له فيه، استبدَّ الحاكمُ بقراراته، سلطة مستبِدَّة. استبدَّ الأمرُ بالشَّخصِ: غلبَه فلم يَقدِرْ على ضَبْطِه. استبدَّتْ به أهواؤُه وشهواتُه، استَبدَّ به الحزنُ/ الوجدُ/ الشوقُ. استبداد [مفرد]: مصدر استبدَّ: تعسُّف، تحكُّم، سلطة مطلقة. استبدادُ زوجٍ: تعسُّفٌ وظلمٌ، فرضُ الإرادة من دون مبرر بحسب الرغبة والأهواء)[6]، وفي موضع آخر من هذا المعجم ذاته: (دِكْتاتور [مفرد]: ديكتاتور؛ حاكِمٌ فردٌ مُستَبدٌّ، يحصر في نفسه السّلطات الحكوميّة كلّها، ويملك السّلطة القضائيّة المطلقة على الحكومة وعلى الدَّولة.
دِكْتاتوريَّة: اسم مؤنَّث منسوب إلى دِكْتاتور: "سياسة/ سلطة دكتاتوريّة. مصدر صناعيّ من دِكْتاتور: ديكتاتوريّة؛ حكم الفرد المستبِدّ الذي لا يلتزم بموافقة المحكومين، حكم الفرد أو الجماعة دون الالتزام بموافقة الآخرين)[7].
فنجد أن اللغويين المعاصرين هنا خرجوا عن المعنى اللغوي القديم إلى ظلاله المعاصرة والمترجمة من لغات أخرى.
اتضح مما سبق ذكره أن اللفظ في ذاته لا يحمل معنى مذموماً، وقد يخلص للانفراد دون المعاني الأخرى التي تقررت من نصوص المعاجم كالتعالي على الناس والانعزال عنهم وأخذ الأمر بالقوة والبطش.

1- شمس العلوم: نشوان بن سعيد الحميري، تحقيق: حسين عبد الله العمري، ومطهر بن علي الإرياني، ويوسف محمد عبد الله، دار الفكر، دمشق، ط1، 1420هـ-1999م: 409/1، وانظر الخبر بلفظ آخر مع ذكر الاستبداد فيه في: الفخري في الآداب السلطانية: محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي، تحقيق: عبد القادر محمد مايو، دار القلم العربي، بيروت، 1997م: 207.

2- النهاية في غريب الحديث: ابن الأثير مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، دار الفكر، بيروت، ط2، 1399هـ-1979م: 105/1.

3- عمدة القاري شرح صحيح البخاري: الإمام بدر الدين العيني، دار الفكر، دمشق: 17/ 259.

4- عمدة القاري شرح صحيح البخاري: 16/ 138.

5- المخصص لابن سيده: لابن سِيدَه، دار الفكر، بيروت، 1398هـ-1987م: 431/3.

6- معجم اللغة العربية المعاصرة: أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2008م: 169/1.

7- معجم اللغة العربية المعاصرة: 759/1.

تعريف الاستبداد اصطلاحاً

قال الباحث إبراهيم السكران بعد ذكره حديث صحيح البخاري أن علي بن أبي طالب قال لأبي بكر: (لكنك استبددت علينا بالأمر، وكنا نرى لقرابتنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم نصيباً)[1]، وقول أبي المظفر في تفسيره تعليقاً على آية الشورى: (وذلك دليل على اتفاق الكلمة، وترك الاستبداد)[2]، وقول القرطبي في المال الخاص الذي آلَ إلى المال العام لموجب شرعي: (يُنفق بالعدل لا بالاستيثار، وبرأي الجماعة لا بالاستبداد بالأمر)[3]؛ قال السكران: (والمراد أن اصطلاح (الاستبداد) مصطلح تراثي معروف، استعمله الصحابة في موضع الذم، وتبعهم أهل العلم في ذمّه)[4].

وإن الباحث في كتب التراث عن مصطلح (الاستبداد) لا يخطئ إن قصد كتب السياسة منها، وكتب السياسة في تراثنا تتلخص في أكثرها بكتب الآداب السلطانية، وهذا مثال لما ذكره العرب الأقدمون في الاستبداد في كتب الآداب السلطانية، جاء في الفخري في الآداب السلطانية: (وينبغي للملك ألا يستبدّ برأيه وأن يشاور في الملمّات خواصّ الناس وعقلاءهم)[5]؛ فهذا مجمل ما جاء في هذا المصنَّف على شهرته وأهميته عن الاستبداد.

ولا نجد في تراثنا ما يسعفنا في تعريف الاستبداد اصطلاحاً إلا ما جاء عند ابن خلدون في مقدمته في فصل (أطوار الدولة واختلاف أحوالها)، فذكر أن حالات الدولة وأطوارها لا تعدو في الغالب خمسة أطوار، وذكر أن الطور الثاني منها هو طور الاستبداد، فقال: (الطّور الثّاني: طور الاستبداد على قومه والانفراد دونهم بالملك، وكبحهم عن التّطاول للمساهمة والمشاركة، ويكون صاحب الدّولة في هذا الطّور معنيّاً باصطناع الرّجال واتّخاذ الموالي والصّنائع والاستكثار من ذلك لجدع أنوف أهل عصبيّته وعشيرته المقاسمين له في نسبة الضّاربين في الملك بمثل سهمه، فهو يُدافعهم عن الأمر ويصدّهم عن موارده ويردّهم على أعقابهم أن يخلصوا إليه حتّى يقرّ الأمر في نصابه، ويفرد أهل بيته بما يبني من مجده، فيعاني من مُدافعتهم ومُغالبتهم مثلَ ما عاناه الأوّلون في طلب الأمر أو أشدّ؛ لأنّ الأوّلين دافعوا الأجانب، فكان ظُهراؤهم على مدافعتهم أهل العصبيّة بأجمعهم، وهذا يدافع الأقارب لا يُظاهره على مدافعتهم إلّا الأقلّ من الأباعد، فيركب صعباً من الأمر)[6]. ثم يذكر الطور الثالث لأنه متصل بالاستبداد فيقول: (الطّور الثّالث: طور الفراغ والدّعة

1- صحيح البخاري: البخاري، تحقيق: محب الدين الخطيب، وترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، المطبعة السلفية، القاهرة، ط1، 1400هـ: كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، رقم الحديث: 4240.

2- تفسير القرآن للسمعاني: أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزى السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي، تحقيق: ياسر بن إبراهيم، دار الوطن، السعودية، ط1، 1997م: 81/5.

3- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن): القرطبي، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي وجماعة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1427هـ-2006م. 385/13.

4- مفاتيح السياسة الشرعية، إبراهيم السكران، رؤى فكرية، د.ت: 28.

5- الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية: 30.

6- مقدمة ابن خلدون: تحقيق: د.علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر، 2004م: 543/2.

لتحصيل ثمرات الملك ممّا تنزع طباع البشر إليه من تحصيل المال وتخليد الآثار وبُعد الصّيت، فيستفرغ وسعه في الجباية وضبط الدّخل والخرج وإحصاء النّفقات والقصد فيها وتشييد المباني الحافلة والمصانع العظيمة والأمصار المتّسعة والهياكل المرتفعة وإجازة الوفود من أشراف الأمم ووجوه القبائل وبثّ المعروف في أهله، هذا مع التّوسعة على صنائعه وحاشيته في أحوالهم بالمال والجاه واعتراض جنوده[1] وإدرار أرزاقهم وإنصافهم في أعطياتهم لكلّ هلال حتّى يظهر أثر ذلك عليهم في ملابسهم وشكّتهم وشاراتهم يوم الزّينة، فيباهي بهم الدّول المسالمة، ويُرهب الدّول المحاربة، وهذا الطّور آخر أطوار الاستبداد من أصحاب الدّولة؛ لأنّهم في هذه الأطوار كلّها مستقلّون بآرائهم بانون لعزّهم موضحون الطّرق لمن بعدهم)[2].

وتراث الإغريق ومَن بعدهم مِن الغربيين يزخر بكلام وتفصيل عن الاستبداد، وملخص ما جاء عندهم عن الاستبداد: حكم الفرد المطلق الذي يستولي على السلطة عنوةً ويحكم الآخرين بالخوف والقهر. وأن المصطلح قديم وهو Despotisme ومعنى كلمة المستبد في الإنكليزية ونحوها في الفرنسية منقولة عندهم من كلمة ديسبوتيس Despotis وتعني في اليونانية: رب الأسرة، وفقاً لفلسفة أرسطو أن سلطة الحاكم في الدولة تبدأ من سلطة الأب في أسرته، وكان أول مرة ظهر فيها مصطلح (المستبد) في الحرب الفارسية الهيلينية في القرن الخامس قبل الميلاد، ثم كان أرسطو فطوّر المصطلح[3]. ليدخل مصطلح الاستبداد قاموس الفكر السياسي في الغرب مع مونتيسكيو في القرن الثامن عشر. مع اختلاف في المصطلح سببه عدم التمييز بين مصطلح الاستبداد ومصطلح الطغيان[4].

وفي الدراسات العربية المعاصرة يستوقفنا كاتب تأثر بالغرب وفلسفته، بما في ذلك ما راج عندهم عن الاستبداد في الشرق، وهو عبد الرحمن الكواكبي في كتابه (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد)، يقول في تعريفه الاستبداد: (يُراد

1- بمعنى: استعراض جنده.

2- مقدمة ابن خلدون: 2/543-544.

3- ينظر: السياسة لأرسطوطاليس: ترجمه من الإغريقية إلى الفرنسية: بارتلمي سانتهيلير، نقله إلى العربية: أحمد لطفي السيد، ضمن سلسلة (من الشرق والغرب)، القاهرة، د.ت:22،242، 337. والطاغية دراسة فلسفية لفصول من الاستبداد السياسي: إمام عبد الفتاح إمام، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد 183، 1994م: 112-116. والجذور الفكرية للاستبداد لعبد الجليل كاظم الوالي ضمن (الاستبداد في نظم الحكم العربية المعاصرة): 306.

4- ينظر: الطاغية دراسة فلسفية لفصول من الاستبداد السياسي: 44-47. وفي الطغيان والاستبداد والديكتاتورية بحث فلسفي في مسألة السلطة الكلية، دولة خضر خنافر، دار المنتخب العربي، بيروت، ط1، 1995م: 278. والجذور الفكرية للاستبداد لعبد الجليل كاظم الوالي ضمن (الاستبداد في نظم الحكم العربية المعاصرة: مركز دراسات الوحدة العربية، تحرير: علي خليفة الكواري، بيروت، ط2، 2006): 305. وعبد الرحمن الكواكبي جدلية الاستبداد والدين: حسن السعيد، الكتاب الخامس من سلسلة رواد الإصلاح، إيران، ط1، 200م: 57. والأبعاد الدولية للاستبداد السياسي في النظم العربية ضمن (الاستبداد في نظم الحكم العربية المعاصرة): 533. والقاموس السياسي ومصطلحات المؤتمرات الدولية: إعداد: س.م.لحام وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004م: 6.

بالاستبداد عند إطلاقه: استبداد الحكومات خاصّةً؛ لأنّها أعظم مظاهر أضراره التي جعلتْ الإنسان أشقى ذوي الحياة. وأما تحكّم النّفس على العقل، وتحكُّم الأب والأستاذ والزّوج، ورؤساء بعض الأديان، وبعض الشركات، وبعض الطّبقات؛ فيوصف بالاستبداد مجازاً أو مع الإضافة. الاستبداد في اصطلاح السّياسيين هو: تَصَرُّف فردٍ أو جمعٍ في حقوق قومٍ بالمشيئة وبلا خوفِ تبعةٍ...، وأمّا تعريفه بالوصف فهو: أنّ الاستبداد صفة للحكومة المطلقة العنان فعلاً أو حكماً، التي تتصرّف في شؤون الرّعية كما تشاء بلا خشية حساب ولا عقاب محقَّقَين)[1]. ونقله عنه غيره من الباحثين والدارسين[2].

والأستاذ محمد عبده كانت له وقفات مع الاستبداد، يقول: (الاستبداد يقال على معنيين: أحدهما: تصرّف الواحد في الكل، على وجه الإطلاق في الإرادة، إن شاء وافق الشرع والقانون وإن شاء خالفهما، فيكون اتباع النظام مفوضاً إليه وحده، إن أراد قام به وحده وإن لم يرد لا يؤخذ عليه، وهو الاستبداد المطلق. وثانيهما: استقلال الحاكم في تنفيذ المرسوم والشرع المسنون، بعد التحقق من موافقتهما على قدر الإمكان، وهذا لا يسمى استبداداً إلا على ضرب من التساهل، وإنما يسمى في عرف السياسيين: توحيد السلطة المنفذة)[3].

وجاء في موسوعة السياسة: (استبداد: حكم أو نظام يستقل بالسلطة فيه فرد أو مجموعة من الأفراد دون خضوع لقانون أو قاعدة، ودون النظر إلى رأي المحكومين)[4].

وفي معجم المصطلحات الاجتماعية: (الحكم المطلق، الاستبدادية: أحد أشكال الحكم يتولى السلطة العليا فيه ملك أو جماعة صغيرة بمقتضى دستور أو بدونه، ويتميز بالسلطة غير المحدودة أو الاستبدادية)[5].

فخاتمة الكلام هنا: (تضج اللغة العربية بمفاهيم القسر والشدة، مثل: الاضطهاد، والتعصب، والعدوان، والتشدد، والعنف، والتغالب، والإرهاب، والقهر، والعبودية، والإكراه، والتسلّط، والسلطوية، والاستبداد. من حيث المبدأ يصح أي مفهوم من المفاهيم السابقة ليوظف مكان الآخر؛ فالخط الفاصل بين هذه المفاهيم لا يُرى بالعين المجردة، وقد يكون هناك من الحدود التي لا تُكتشف إلا بالمجهر. ولا نعتقد بوجود محاولات سوسيولوجية عربية أو محاولات لغوية

1- طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد: عبد الرحمن الكواكبي، دار الصحوة، القاهرة، ط1، 2016م: 12.

2- ينظر: تفكيك الاستبداد دراسة مقاصدية في فقه التحرر من التغلب: محمد العبد الكريم، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط1، 2013م: 37. وعبد الرحمن الكواكبي جدلية الاستبداد والدين: 50. وآليات الاستبداد وإعادة إنتاجه في الواقع العربي ضمن (الاستبداد في نظم الحكم العربية المعاصرة): 388. والأبعاد الدولية للاستبداد السياسي في النظم العربية ضمن (الاستبداد في نظم الحكم العربية المعاصرة):531.

3- الكتابات السياسية: الإمام محمد عبده، تقديم: محمد عمارة، وزارة الثقافة والفنون والتراث، دولة قطر، 2013م: 105.

4- موسوعة السياسة: رئيس التحرير: عبد الوهاب الكيالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت: 166/1.

5- معجم المصطلحات الاجتماعية إنكليزي فرنسي عربي: أحمد زكي بدوي، مكتبة لبنان، بيروت، 1982م: 3.

متطورة للفصل بين هذه المفاهيم)[1]، ووجدنا أن معنى الاستبداد في التفرد والتمرد والسطوة تم تضمينه في لفظ الطغيان، وبعض هذه المعاني لفظ الغي والعتوّ في تراثنا وفي المصنفات العربية المعاصرة، مع التسوية في أكثر الدلالة على معنى الاستبداد في التسلّط والقهر والإرهاب والعنف والاضطهاد، وإن كان بعض ما ذُكر ينطوي تحت الاستبداد ويكون من وسائله كالاستعباد والعبودية والاضطهاد والإكراه.

وعليه فلا يحكم تراثَنا الاختلافُ الفلسفيُّ الذي وجدناه عند فلاسفة الغرب بين الاستبداد والطغيان مثلاً.

وإن كان يتحتم اليوم بعد امتزاج الحضارات وعلومها وشيوع المصطلحات بينها الامتناع عن استعمال اللفظ بمعناه الحرفي، فلا يمتنع قبول عائلته من المصطلحات المقاربة دون تضييقه بما ضيّقوه هم على أنفسهم أحياناً.

وحيث إننا سنكون في دراسة للاستبداد في الأدب القديم من خلال نصوص شعرية جاهلية، نتعامل فيها مع النص الأدبي وجهاً لوجه دون واسطات، وحيث إنه أدب مرحلة لم تعرف الاحتكاك بتراث الأمم الأخرى وفكرها؛ فإنني سأجري في مصطلح الاستبداد بعيداً عن المعنى الفلسفي المعقد، ليكون الاستبداد في تضاعيف البحث مستنداً للمعنى اللغوي كما جاء في معاجمنا العربية وفي تراثنا وعند المعاصرين الذين لم يغرقوا في تفاصيل المعنى الفلسفي؛ فالاستبداد هنا: الانفراد بالسلطة مما حقه الاشتراك والمشورة، وغلبة الآخرين وقهرهم والتسلط عليهم، وانتزاع ما في أيديهم بغير حق.

وحيث إن الاستبداد واضح الدلالة واسع الطيف يدخل شتى مناحي الحياة ويمكن أن يكون في أي منها وجدنا أن الاستبداد لا يكون سياسياً فحسب، بل في السياسة وفي الاقتصاد، وفي الفكر والدين، وفي المجتمع.

الحياة الدينية والفكرية في الجاهلية

كانت الجزيرة العربية عند مبعث النبي صلى الله عليه وسلم أخلاطاً من وثنيين يعبدون الأصنام، ونصارى، ويهود، وقلةٍ تابعت الفرس في المجوسية. لكن الحالة العامة التي غلبت هي الوثنية، التي كانت في الجزيرة العربية بعد التغيير في الحنيفية دين إبراهيم التي انتشرت بعد دعوته عليه السلام وإقامته البيتَ الحرامَ في قلب الجزيرة العربية بأمر الله عز وجل. فلما

1- بين السلطة والتسلط دراسة تحليلية: بحث للدكتور علي أسعد وطفة، مجلة الفكر السياسي، اتحاد الكتاب العرب بدمشق، العدد 3، 1998م: 6. وانظر: جذور الاستبداد قراءة في أدب قديم، عبد الغفار مكاوي، مجلة عالم المعرفة، الكويت، العدد 192، 1994م: 8. والطاغية: 39، و46.

كان عمرو بن لُحَيّ كان تغيير الحنيفية، فنصبَ عمرو هذا الأوثانَ، وبحرَ البحيرةَ، وسيَّب السّائبةَ، ووصل الوصيلةَ، وحَمَى الحاميَ[1]، وبدأت عبادة الأصنام كما تذكر الروايات وانتشرت في شتى أنحاء الجزيرة[2].

ومن شمال الجزيرة في فلسطين وأرض الكنانة سرى اليهود نحو جزيرة العرب عبر موجات من الهجرة، إن كان خوفاً من البطش أو للتجارة، فأقاموا في المدينة واليمن، وتمّوّد بعض العرب على أيديهم، وحينما هاجَرَ النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة كانت قوة اليهود التجارية والسياسية والاجتماعية كبيرة[3].

وأما النصرانية في الجزيرة العربية فتختلف عن اليهودية في أنها لم تدخل الجزيرة عبر الهجرات والتجارة، بل عبر التبشير الذي تميّز به رجالها عن اليهودية عموماً، فدخلها عدد من المبشّرين واتخذوا أديرةً يسكنونها يعتزلون الدنيا وملذاتها في نواحي الجزيرة الصعبة، وكانت هذه الأديرة محطةً لبعض العرب للتداوي الجسدي والروحي، فانتشرت النصرانية في العرب على نطاق غير كبير عبر هؤلاء المبشّرين ومع بعض الرقيق الأبيض الذي كان يأتي الجزيرة[4]. ويذكر الدكتور علي أبو زيد (أن كثيرين ممن حملوا النصرانية من العرب إنما جاؤوا بها على أنهم حملوا معهم إلى قومهم أمراً جديداً يدلّون به على اطلاعهم وتنقّلهم، ويفاخرون به، ويباهون بهذا البدع الجديد الذي وفدَ معهم، دون أن ينفّذوا أحكامه أو أن

1- البحيرة: قال الراغب الأصفهاني: «بَحَرْتُ البعيرَ: شققت أذنه شقاً واسعاً، ومنه سُميت: البحيرة، وذلك ما كانوا يجعلونه بالناقة إذا ولدت عشرة أبطنٍ، شقّوا أذنها فيسيِّبونها، فلا تُركَب ولا يُحمَل عليها» مفردات ألفاظ القرآن (109)، وقال عن السائبة: «السائبة: التي تُسيَّب في المرْعَى، فلا تُرَدُّ عن حوضٍ ولا عَلَفٍ، وذلك إذا ولدت خمسة أبطنٍ» مفردات ألفاظ القرآن (431)، وعن الوصيلة: «وهو أن أحدهم إذا ولدت له شاتُه ذكراً وأنثى قالوا: وصلت أخاها، فلا يذبحون أخاها من أجلها» مفردات ألفاظ القرآن (873)، وعن الحامي: «قيل: هو الفحل إذا ضربَ عشرةَ أبطنٍ، كان يقال: حَمَى ظَهرَه فلا يُركب» الراغب، الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم – الدار الشامية، دمشق – بيروت، ط3، 1423هـ-2002م: (259).

2- ينظر: ياسين، جمول: أسجاع الكهان الجاهليين وأشعارهم جمع وتحقيق ودراسة، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، الإمارات العربية المتحدة، 2013م: 73. وجواد، علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: دار العلم للملايين، بيروت. 68/6. ومحمود، شكري الآلوسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، 2009م: 192/2. ومحمد نعمان، الجارم: أديان العرب في الجاهلية، مطبعة السعادة، مصر، 1923م: 128. وفي الفكر الديني الجاهلي، محمد الفيومي: دار الجيل، بيروت، ط1، 1420هـ-1999م: 223.

3- ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي: 511/6. ومحمود، شكري الآلوسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، 2009م: 232/2. ومحمد نعمان، الجارم: أديان العرب في الجاهلية: 199. وشعر يهود في الجاهلية وصدر الإسلام، عبد الله جبريل مقداد: دار عمار، عمّان، ط1، 1420هـ-1999م: 23. وفي الفكر الديني الجاهلي، محمد الفيومي: 84.

4- ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي: 582/6. ومحمود، شكري الآلوسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: 234/2. ومحمد نعمان، الجارم: أديان العرب في الجاهلية: 202. وفي الفكر الديني الجاهلي، محمد الفيومي: 91.

يطبّقوا أوامره ونواهيه. وآية ذلك ما وصل إلينا من أخبارهم ومعاملاتهم وأيامهم فيما بينهم، مما لا ينطبق على مبادئ أي دين سماوي، بل يبقى في دائرة القبيلة وأعرافها)[1].

وممن اشتُروا بدِينهم في الجاهلية الذين عُرفوا بالحنفاء، أو مَن جاء وصفهم في المصادر العربية: (مَن كان على دِين)، ويعنون به مَن كان على الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام، الذين أنكروا عبادة الأصنام وكانت لهم علامات فارقة من الاختتان وحج البيت الحرام وعدم الأكل مما يُذبح عند الأصنام، وذكر بعضهم لهم الاغتسال من الجنابة وتحريم الخمر على أنفسهم[2].

وعلى نحو أضيق بكثير من النصرانية واليهودية عرفت العرب في بعض أبنائها الزندقة والمجوسية، وجاءتهم من احتكاكهم بفارس في العراق واليمن[3]. وكذلك قلّة عُرفوا بالصابئة عبَدة الكواكب[4].

الاستبداد الديني والفكري في الشعر الجاهلي

أول ما يتبادر إلى الذهن عند إطلاق (الاستبداد الديني) هو ما عُرف في تاريخ أوربا باستبداد الكنيسة أو استبداد البابوات أو الاستبداد الكَنَسيّ: ويتحدد هذا بنجاح الكنيسة في أوربا في القضاء على استبداد الملوك والإقطاعيين واستعادة السلطة للبابا والكنيسة بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلادي، وهي المرحلة التي عاشتها أوربا في العصور الوسطى تحت وطأة الاستبداد الكنسي، وكانت السلطات كلها بيد البابا والقساوسة. وتجلى استبداد الكنيسة بمحاربة الحرية الفكرية عبر تهمة الهرطقة وحرق الكتب والنفي والقتل، والاستبداد بالسلطة السياسية فيما كان من حروب أوقدوا نارها باسم الربّ، مع ما كانت تجمعه من ضرائب وأموال بالقوة لاسيما لتمويل حروبها الصليبية[5].

1- علي، أبو زيد: شعراء تغلب في الجاهلية أخبارهم وأشعارهم، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى، 2012م: 45.

2- ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي: 449/6. ومحمود، شكري الآلوسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: 236/2. ومحمد نعمان، الجارم: أديان العرب في الجاهلية: 193. وفي الفكر الديني الجاهلي، محمد الفيومي: 142.

3- ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي: 691/6. ومحمود، شكري الآلوسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: 222/2. ومحمد نعمان، الجارم: أديان العرب في الجاهلية: 190. وفي الفكر الديني الجاهلي، محمد الفيومي: 198.

4- ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي: 701/6. ومحمود، شكري الآلوسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: 217/2. ومحمد نعمان، الجارم: أديان العرب في الجاهلية: 184. وفي الفكر الديني الجاهلي، محمد الفيومي: 125.

5- ينظر: الاستبداد الديمقراطي: عصمت سيف الدولة، دار المستقبل العربي للنشر، 1998: 56 وبعدها. والطاغية دراسة فلسفية لفصول من الاستبداد السياسي: 142. وحقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها: عبد الرحمن السلمي، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، 2009م: 30. والاستبداد الديني، د.محمد بريش، الألوكة. ومحاضرات في النصرانية: الشيخ محمد أبو زهرة، الرئاسة العامة لإدارات

وبالعودة إلى ما سبق ذكره من أطياف دينية كان عليها العرب الجاهليون في جزيرتهم، وتعايشهم فيما بينهم ومع جيرانهم الفرس المجوس من جهة، والروم النصارى من جهة أخرى، وما تركه ذلك من بصمات في القوم إذ تنصّر قومٌ منهم وانغمس قومٌ آخرون منهم في المجوسية، بل وفي اليهودية أيضاً؛ يتأكد أول فارق وأكبره بين ما عاشته أوربا أيام رزحت تحت الاستبداد الكنسي، وكلها كانت على دينٍ واحدٍ اختلف مذاهب النصارى فيه أو اتفقت وما كان عليه العرب في جاهليتهم من تنوّع في أديان أهلها وإن غلبت عليهم الوثنية.

ولا يكفي التنوع دليلاً على البراءة من الاستبداد الديني أو الفكري، لكن هذا التنوّع قد يكون له ما يبرّره ويشرح أسبابه، ولعل هذا مرده إلى حياتهم البدوية التي كانوا يعيشون، فالذين عُرفوا في تاريخنا باسم (الحنفاء) قضَى بعضهم وهم يبحثون عن (دِين)، وعاشوا ما يمكن أن يسمى حرية دينية وقتها، فعبدوا ما شاؤوا ونبذوا كثيراً مما كان عليه الجاهليون، ففي المحبَّر مثلاً تواجهنا عدة مباحث تحكي بعض هذه (الحرية الدينية أو الفكرية) إن صحّ التعبير، من نحو: (أسماء الذين رفضوا عبادة الأوثان قبل مبعث النبي صلى الله عليه والتمسوا دين إبراهيم صلى الله عليه)، وذكر فيه بعض من عُرفوا بالحنفاء وما انتهوا إليه من الاعتقاد والعبادة في السبيل التي قصدوها، وسمّى ابنُ حبيب منهم عثمان بن الحُويرث وورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نُفيل وعبيد الله بن جحش الأسدي[1]، ومنهم مَن هجر أرض قومه وخرج يبحث عن دِينٍ يرتضيه دون أن يتعرّض له أحد بأذى. وعند ابن حبيب كذلك باب (مَن حرّم في الجاهلية الخمر والسكر والأزلام)[2]، وعند القالي في أماليه: (مطلب من حرَّمَ الخمرَ على نفسه في الجاهلية تكرّماً وصيانةً لنفسه)[3]؛ وفي شأن هؤلاء يستوقف الباحثَ أمران: أولهما أن هؤلاء طائفة أكبر من الحنفاء، إذ عاف بعضهم الخمر وحرّمها على نفسه لسبب ما، وإن كان فيهم بعض مَن اشتُهروا بالحنيفية مثل ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نُفيل. وثانيهما أنهم تغنَّوا بمخالفة قومهم في تحريمهم الخمر على أنفسهم وعابوا عليهم شربه. فممن ذكر ابن حبيب سبباً لتحريمه الخمر مِقيَس بن قيس السهمي فقد سكرَ فجعل يخطّ ببوله ويقول: نعامة أو بعير، فما أفاق أُخبرَ بذلك؛ فحرَّم الخمر على نفسه[4]. لكن العباس بن مرداس السُّلمي حرّمها على نفسه لسبب آخر، إذ يقول عن نفسه: (لا أشرب شراباً؛ أصبح سيد قومي، وأُمسي سفيههم)[5]؛ فتحريمه الخمرَ كان عن قناعة منه أن تحطّ من قيمة شاربها وتهوي به من موضع السيادة التي هو فيها لدرْك السفهاء ممن تخمّر عقولهم فتحجب عنهم أنوار العقل والكياسة. وإن كان القالي زاد في

البحوث العلمية والإفتاء، السعودية، ط4، 1404هـ: ص204. والعلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة المعاصرة: د.سفر الحوالي، دار الهجرة: 123.

1- ينظر: المحبَّر، محمد بن حبيب: رواية أبي سعيد السكري، تحقيق: د. إيلزه ليختن شتيتر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د.ت: 171.

2- ينظر: المحبَّر، محمد بن حبيب: 237.

3- ينظر: كتاب الأمالي، أبو علي القالي: دار الجيل، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د.ت. 204/1.

4- ينظر: المحبَّر، محمد بن حبيب: 237.

5- ينظر: المحبَّر، محمد بن حبيب: 237.

تبويبه تعليلاً مجملاً (تكرّماً وصيانةً لنفسه) فهل لنا أن نقرأ في سكوت ابن حبيب عن سبب تحريم مَن سمّاهم في هؤلاء من الحنفاء شيئاً مرجعه ما اعتنقوه؟ قد يكون.

وأمّا مَن ذكروا تحريمهم الخمر في شعرهم فكثير، منهم قيس بن عاصم، وكان سكرَ فغمزَ ابنتَه، فلما أُخبر بذلك حرّمها، يقول[1]:

رَأَيتُ الخَمْرَ مَصْلَحةً وفيها ... خِصَالٌ تُفْسِدُ الرَّجُلَ الكَرِيما

فَلَا واللهِ أَشْرَبُها حَيَاتِي ... وَلَا أَدْعُو لها أَبَداً نَدِيما

فَإِنَّ الخَمْرَ تَفْضَحُ شَارِبِيها ... وَتُخْنِيهم بها الأمرَ العَظِيما

إذا دَارَتْ حُمَيّاهَا تَعلَّتْ ... طَوالِع تسفهُ الرَّجلَ الحَلِيمَا

فإن كانت الخمر وتحريمها من الدِّين فما نجده في أشعار هؤلاء وغيرهم ضربٌ من الحرية الدينية عاشه العرب الجاهليون، وتسامحٌ لم يقف عند ذلك، يقول ورقة بن نوفل[2]:

لقد نصحتُ لأقوامٍ وقلتُ لهم ... أنا النذيرُ فلا يَغُرُّكُمُ أحدُ

لا تَعبُدُنّ إلهاً غيرَ خالقِكُم ... فإنْ دَعَوكُم فقُولُوا: بَيننا حَدَدُ

سبحانَ ذي العرش سبحاناً نَعوذ به ... وقبلُ قد سبَّحَ الجُوديُّ والجَمَدُ

مسخَّرٌ كلُّ ما تحتَ السماءِ له ... لا يَنبغي أن يُناوي ملكَه أحدُ

لا شيءَ ممّا ترى تبقَى بَشاشَتُه ... يَبقَى الإلهُ ويُودِي المالُ والولدُ

لم تُغنِ عن هُرمُزٍ يوماً خزائِنُه ... والخُلدُ قد حاولتْ عادٌ فما خَلدُوا

ولا سليمانُ إذ دانَ الشّعوبُ له ... والجنُّ والإنسُ تَجري بينها البَرَدُ

1- ينظر: المحبَّر، محمد بن حبيب: 238. وفي كتاب الأمالي، أبو علي القالي: 204/1 البيتان الأول والثاني منسوبَين لصفوان بن أمية بن محرِّث الكناني، وذكر القالي في الموضع ذاته لقيس بن عاصم في تحريمه الخمر بيتَين آخرَين.

2- الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني: 121/3، وانظر: تاريخ ابن عساكر: تحقيق: علي شيري، دار الفكر، بيروت، 1415هـ-1995م: (25/63)، ونسب قريش: الزبيري، تحقيق: إ.ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، 1951م (208)، والروض الأنف: السُّهيلي، قدّم له وعلَّق عليه: طه عبد الرؤوف سعد، دار الفكر، بيروت، 1428هـ-2008م (250/2).

وفي خبر الأبيات: أن سيدنا بلالاً الحبشي كان لجارية من بني جمح بن عمرو، وكانوا يعذّبونه في رمضاء مكة، يُلصقون ظهره بالرّمضاء ليُشرك باللّه؛ فيقول: أحد أحد؛ فيمرّ عليه ورقة بن نوفل وهو على ذلك، فيقول ورقة بن نوفل: أحدٌ أحدٌ واللّه يا بلال! واللّه لئن قتلتُمُوه لاَتّخذنَّه حناناً، كأنه يقول: لأتمسّحنّ به. وقال ورقة بن نوفل في ذلك: لقد نصحت .. الأبيات.

فهذا مما لم تشهده جزيرة العرب إلا عند إشراق نور الرسالة المحمدية فيها، وما كان من مشركي قريش تجاه من أسلم كان بخلاف ما عُهد عن البدو والعرب، لكنه الدين الجديد الذي شعروا أنه سيغيّر موازين كثيرة؛ وقد كان.
وتكرر فعلُ مشركي مكة مع مَن يُسلم في غير جزيرة العرب وبعد ذلك التاريخ بقرون كلما شعر حاكم أو زعيم مستبد أن نور الإسلام إن أشرق في النفس فسوف تتبدد ظلمات استبداده.

ففي حين كان زيدٌ وورقةُ في وسط مكة وبين ظهرانيَ مجرمي المشركين الذين أذاقوا المسلمين الأوائل الويلات؛ فهل هو تسامح القادة المستبدين مع مَن لا تؤثر دعوته على مكتسباتهم؟ وليس ببعيد ما نراه في الدول التي تحارب التديّن من ترويج في الوقت نفسه لدعاة تديّن يوافقونها؛ لأن التديّن الذي يدعون إليه يوافق هوى المستبدين ولا يهدد عروشهم!

ولا يبعد عن تلك الأجواء في الحرية مع الحنفاء ما قاله الورل الطائي[1]:

لَا دَرَّ دَرُّ رِجالٍ خَابَ سَعيُهُم يُستَمْطَرُون لَدَى الأَزَمات بالعشْرِ

أَجاعلٌ أنتَ بَيقُوراً مُسلَّعةً ذريعةً لَكَ بينَ اللهِ والمطَرِ؟

ذكر البصري أن الورل يرد بهذين البيتين على أمية بن أبي الصلت في شعر له عن عادة للجاهليين تعرف بنار الاستمطار[2]. وقال العسكري: «فأما نار الاستمطار فكانوا في الجاهلية الأولى إذا احتبس المطر يجمعون البقر ويعقدون في أذنابها وعراقيبها السلع والعشر، ويصعدون بها في الجبل الوعر، ويشعلون فيها النار، ويزعمون أن ذلك من أسباب المطر»[3]. فالشاعر بما يجده في حياته من فسحة لم يمتنع من السخرية والتهكّم على شيء يعظّمه غيره ويستمطر به.

1- شعراء طيئ في الجاهلية والإسلام أخبارهم وأشعارهم: أحمد حالو، دار الكتب الوطنية- أبو ظبي، ط1 سنة 2012م: 829، والحيوان: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط2، 1416هـ-1996م: 468/4.

2- الحماسة البصرية: علي بن أبي الفرج بن الحسن البصري، تحقيق: د. عادل سليمان جمال، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر، د.ت: 396/2.

3- الأوائل: أبو هلال العسكري، تحقيق: محمد المصري ووليد قصّاب، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1975م:28، وانظر: ديوان أمية بن أبي الصلت، جمع وتحقيق ودراسة: عبد الحفيظ السطلي، دمشق، 1974م: 396، وسائر مصادر البيتين فمعظمها تحدث عن هذه العادة.

أم ذلك تراه مما ذُكر من عدم المبالاة التي كانوا عليها تجاه الدّين لطبيعتهم البدوية، التي يخرج عنها حاتم الطائي في قوله[1]:

وَمَا زِلتُ أَسْعَى بينَ خُصٍّ وَدَارَةٍ بِلحْيَانَ حتّى خِفْتُ أنْ أَتَنصَّرا

فهنا نجد حاتماً الطائيَّ يخشى على نفسه من الانتقال عن دِينه إلى النصرانية، ما يدل أن تغيير الدِّين عنده ليس هيّناً. وهذا ما وجدنا أنه تطور لألوان أخرى عند بدء الإسلام، كان من أهمها افتراق الأزواج عند تغيير أحدهما دِينه دون أن يقبل الآخر منهما، فقد قال هبيرة بن أبي وهب المخزومي حين بلغه إسلام زوجته أم هانئ[2]:

وَعَاذِلةٍ هبَّتْ بِلَيلٍ تَلُومُني وتَعْذُلُني باللَّيلِ ضَلَّ ضَلَالُهَا

وتَزعُمُ أنّي إنْ أَطعْتُ عَشِيرَتِي سَأَرْدَى وهل يَردينَ إلّا زيالُهَا

وإنَّ كَلامَ المرءِ في غَيرِ كُنْهِهِ لَكَالنَّبْلِ تَهْوِي ليسَ فيها نِصَالُهَا

فإنْ كنتِ قد تَابعْتِ دِيْنَ محمَّدٍ وعَطَّفَتِ الأرحامُ منكِ حِبَالُهَا

فكُوني عَلَى أَعْلَى سحوقٍ بهضْبَةٍ مُمَنَّعةٍ لا يُسْتَطاعُ بِلالُهَا

وليس هذا الحال للرجل فحسب؛ فامرأة العباس بن مرداس عندما بلغها إسلامه جمعت أغراضها وفارقته إلى قومها من المشركين وقالت هذه الأبيات[3]:

أَلَمْ يَنْهَ عبّاسُ بنُ مِرْدَاسَ أنّني رأيتُ الوَرَى مخصوصةً بالفَجَائِعِ

أَتَاهُم مِنَ الأَنْصارِ كلُّ سَمَيذَعٍ مِنَ القَومِ يَحمِي قومَه في الوَقَائِعِ

بكلِّ شَديدِ الوَقعِ عضْبٍ، يَقُودُه إلى الموتِ هام المقرَبَاتِ البَرَائِعِ

لَعَمْرِي لَئِنْ تَابعتَ دِيْنَ محمَّدٍ وفَارقتَ إخوانَ الصَّفَا والصَّنَائِعِ

لَبَدّلتَ تلك النفسَ ذلّاً بعزّةٍ غداةَ اختِلافِ المرهِفَاتِ القَوَاطِعِ

1- شعراء طيئ في الجاهلية والإسلام أخبارهم وأشعارهم: 242.

2- الشعر القرشي في القرون الثلاثة الأولى: مختار الغوث، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، ط1، 2007: 477/2.

3- الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني: 306/14، وانظر: شاعرات العرب، بشير يموت، دار القلم العربي، حلب، ط1، 1998: 189.

وقَومٌ هُمُ الرَّأسُ المقدَّمُ في الوَغَى وأَهلُ الحِجَا فينا وأهلُ الدّسَائِعِ

إن أكبر هزة تعرّضت لها جزيرة العرب، بل المعمورة كلها كانت بعثة النبيّ الخاتم صلى الله عليه وسلم، ولولا ارتدادات الدعوة المحمدية لكان الشعر العربي القديم خلا تماماً أو كاد من الآثار الدينية فيه، ومَن لم يكن متأهباً روحياً لهذه الدعوة قد يستبد حتى بمن يحب ويفارقه ويؤذيه، لأنه يرى الدين الجديد أعلى من أية رابطة وإن كانت الزوجية، دون أن نستبعد أنها العصبية للأهل والقرابة، العصبية التي كانت عند غالب العرب – رجالاً ونساءً – مقدمةً على الزوجية وغيرها.

ولما أصاب عامر بن الطفيل ما أصابه من داء ومات بعث بنو عامر لبيد بن ربيعة إلى الرسول، وقالوا له: اقدم لنا على هذا الرجل، فاعلم لنا علمه. فقدم عليه، فأسلم لبيد، وأصابه وجع هناك شديد من حمّى، فرجع إلى قومه وجاءهم بذكر البعث والجنة والنار، فقال سراقة بن عوف بن الأحوص يلومه على ما جاء به من الأفكار والمعتقدات[1]:

لَعَمْرُ لَبِيدٍ إنّه لَابنُ أمِّه وَلَكِنْ أبُوه مَسَّه قِدَمُ العَهْدِ

دَفَعناكَ في أرضِ الحِجَازِ كأنَّما دَفَعْنَاكَ فَحلاً فوقه قزعُ اللّبْدِ

فَعَالجت حُمّاه وداءَ ضُلُوعِهِ وترنيق عيشٍ مسَّه طرفُ الجَهْدِ

وجئتَ بدِينِ الصَّابِئِينَ تَشُوبُه بألواحِ نجدٍ بُعد عَهْدِك مِنْ عَهْدِ

وإنَّ لَنَا داراً زَعَمتَ ومَرجِعاً وثَمَّ إيابُ القارظين وذي البرْدِ

فعدم تقبّل تغيير الدين والاهتداء بنور الإسلام يقلب نِظرتهم، فبينا الرجل فيهم محموداً ينقلبون للطعن فيه والتشكيك بعقله وأخلاقه.

وبالنظر فيما سبق من ملامح الحياة الدينية عند العرب الجاهليين، وحيث لا قساوسة ولا أرباب شعائر يعظّمونهم تعظيم الأمم الأخرى أسيادهم الدينيين، نجد ظواهر شغلت حيزاً في الحياة الجاهلية كالكهانة، التي هي علم الغيب عن طريق تابع من الجنّ، قد راجت سوقها، وعلت مكانة أصحابها من الكهّان والكواهن حتى قاربت مكانة الشاعر أو تفوقت عليه في بعض المواضع؛ لأن الكاهن كان الملجأ الذي يفزعون إليه عندما يختلفون أو تضيق بهم علوم الإنس عن إدراكه. وهذه المكانة والأهمية منحت الكهّان ما يمكنهم به الاستبداد ببعض الأمر أو بالناس أحياناً؛ فقد ذكر أبو الفرج الأصفهاني في خبر مقتل حُجْرٍ أبي امرئ القيس الشاعر: أن حُجراً بعد أن أوقع ببني أسد، وقتَّلهم بالعصا صيَّرهم إلى تهامة، ولما استشفعه عَبِيد بن الأبرص فيهم رقَّ لهم وبعثَ في أثرهم، فأقبلوا، قال أبو الفرج: «حتى إذا كانوا

1- أشعار العامريين: عبد الكريم يعقوب، دار الحوار، اللاذقية، سوريا، ط1، 1982: 78.

على مسيرة يومٍ منه تكهَّن كاهنهم، وهو عوف بن ربيعة، فقال لبني أسد: يا عبادي! قالوا: لبَّيك ربَّنا؛، قال: مَنِ المَلِكُ الأَصْهَبْ[1]، الغلَّابُ غيرُ المغلَّبْ[2]، في الإبلِ كأنها الرَّبْرَبْ[3]، لا يَعْلَقُ رأسَه الصَّخَبْ[4]؛ هذا دمُه يَنْثَعِبْ[5]، وهذا غداً أولُ مَنْ يُسلَبْ. قالوا: مَنْ هو يا ربَّنا؟ قال: لولا أن تجيشَ نفسٌ جاشِيَه[6]؛ لَأخبرتُكم أنه حُجرٌ ضاحِيَه[7]. قال أبو الفرج بعد هذا: «فركبتْ بنو أسد كلَّ صعبٍ وذَلُولٍ، فما أشرقَ لهم النهار حتى أَتَوا عسكر حُجر، فهجموا على قُبَّته» وقتلوه . فهذا نصّ متقدّم في استبداد الكهّان بالناس والقرار عنهم، بل وتوجيههم وإن كان فيه مقتل قائد سيجرّ على القبيلة بل جزيرة العرب كلها الدماء. فضلاً عن مخاطبة الكاهن الناسَ من حوله بالعبودية والرد عليه بالربوبية، مما جاء كذلك عن بعض الحكّام المستبدين في الجاهلية، إذ يقول جَذيمة الأبرش في معرض فخره بنفسه[8]:

أنَا رَبُّ النَّاسِ كلِّهِم غَيرَ ربِّي الكافِتِ الفَاتِي

وإنما سلكت هذه الحادثة للكهّان في الاستبداد الفكري لأن الكهان عند العرب لم تكن في الجاهلية ديناً يُدان، وإنما هي بعض أوابد الجاهلية كما سمّاهم بعض مؤرخي الأدب العرب أو هي من علومهم كما سمّاها آخرون، ولما كان يتمتع به الكهنة فيهم من المكانة حتى قرنوه بالشاعر أحياناً؛ فالكهنة على هذا من قادة الفكر والمجتمع في الجاهلية عند العرب[9]. وما جاء كان استبداداً من الكهّان الذين لم يخفوا في مواضع أخرى حرصهم على إيهام الناس علمهم الغيب وسلطتهم وقوتهم؛ ففي حادثة لملكٍ من ملوك الجاهلية مع أحد أشهر كهّان العرب (سطيح الغساني) جاء فيها[10]: قال الملك: (يا سطيح، ألا تخبرني عن علمك هذا؟ قال: إنّ علمي ليس مِنِّي، ولا بحزمٍ ولا تظنِّي[11]، ولكنْ أخذتُه من أخٍ

1- الصُّهبة: حمرة تعلو سواد الشعر، ويسمى الأسد: الأصهب لذلك.

2- الغلّاب: مبالغة من (الغالب)، والمُغلَّب: المغلوب.

3- الربرب: القطيع من بقر الوحش.

4- الصخب: شدة الصوت.

5- ثعب الماءَ والدم: فجّره فانفجر.

6- جاشت النفس: فاضت، وجاشت القدر: غلت.

7- ضاحيه: علانية.

8- أسجاع الكهان الجاهليين وأشعارهم: 185.

9- انظر: أسجاع الكهان الجاهليين وأشعارهم: 29 وما بعدها

10- المصدر ذاته: 222.

11- التظنّي: إعمال الظنّ.

لي جنِّي، قد سمعَ الوحيَ بطُورِ سِنِّي[1]. قال الملك: أرأيت أخاك هذا الجنّي؟ أهو معك لا يفارقك؟ قال: إنه لَيزولُ حيث أَزولُ[2]، ولا أنطقُ إلا بما يقولُ).

وعند القالي في أماليه: أن خمسة نفرٍ من طيِّئ من ذوي الحجا والرأي، منهم: بُرْج بن مُسْهِر وهو أحد المعمَّرين، وأُنَيْفقَ بن حارثة بن لَأْم، وعبد الله بن سعد بن الحَشْرَج أبو حاتمٍ طيِّئ، وعارفقٌ الشاعر، ومُرَّة بن عبد رُضَى؛ أرادوا امتحان علم سواد بن قارب الدَّوسيَّ وكان كاهناً في الجاهلية، فلما قربوا من السراة قالوا: لِيَخْبَأْ كلُّ رجلٍ منّا خبيئاً ولا يخبر به صاحبِه؛ ليسألَه عنه، فإن أصاب عرفْنا عِلمَه وإن أخطأ ارتحلنا عنه، فخَبَأَ كلُّ رجل منهم خبيئاً، ثم صاروا إليه، فأَهْدَوا له إبلاً وطُرَفاً من طُرَف الحِيرة، فضربَ عليهم قبةً ونَحَرَ لهم، فلما مضت ثلاث دعا بهم فدخلوا عليه، وسألوه عما أخفَوا، وكان يجيب كل واحد منهم بسجعٍ من سجع الكهان، حتى تثبّتوا من علمه وكهانته، فقالوا له في آخر الخبر: (صدقت، وأنت أعلم مَنْ تحمل الأرض، ثم ارتحلوا عنه)[3].

فهذا مراد الكاهن من تدليسه على الناس أن يتوهموا علمه الخارق، ليسهل عليه قيادتهم ويستسيغوا شيئاً ما استبداده بهم وبآرائهم وفكرهم.

لكن الكهّان وأسجاعهم في الجاهلية – على الحقيقة – لم تكن تشغل الساحة الفكرية على نحو ما كان الشعر والشعراء؛ فتأسيساً على العلاقة بين الفكر واللغة، وأن اللغة حاملة الفكر – بعيداً عن النظريات اللغوية والفلسفية في هذا وهي مبسوطة في مظانها[4] – وأن الفكر يُبث باللغة قراءة وكتابة وسماعا عبر العديد من سائل التواصل. فلا يُخالَف أن الوسيلة الأقوى في الجاهلية للنشر كانت عبر ما يحبّه العرب ويسهل عليهم حفظه وهو الشعر، فالشعر ديوان العرب ومستودع علومها كما قيل قديماً، وإن لم تكن جزيرة العرب قد شهدت فلاسفة كفلاسفة الإغريق والصين وآسيا، وعلماء كما كان عند فارس على نحوا ما مرّ من ذكر علوم هذه الأمم في الفصل الأول، فيمكننا النظر في حال الشعراء وأفكارهم كما جاءت في الشعر الصحيح، وكيف كان موقف الكبراء والحكام من الشعراء وفكرهم في أشعارهم؟ فذلك يرسم لنا الحياة الفكرية التي كانوا يعيشون. حَمَلَة الفكر والقول عندهم شعراؤهم، هم الناطقون

1- طور سنّي: طور سيناء، وجعلها (سني) لاستقامة السجع.

2- الزول: الحركة.

3- أمالي القالي: 289/2.

1 -ينظر: اللغة والفكر، بحث للدكتور نوري جعفر في مجلة المدى الثقافي العدد 754 لعام 2006. وعلاقة اللغة والفكر بين اللغويين العرب الأقدمين والدرس اللغوي الحديث، لثاني بابيو يانا في مجلة بحث الرضا العلمية العدد السادس لعام 2013. وجدلية اللغة والفكر دراسة في مفهوم الكلام عند الآمدي في ضوء الدراسات اللغوية المعاصرة، للدكتور حامد كاظم عباس في مجلة كلية الآداب بجامعة بغداد العدد 97. والعلاقة بين اللغة والفكر، للدكتور كريمة الجابي، في شبكة الألوكة بتاريخ 2015/10/7.

الرسميون في قبائلهم، والمراسلون الذين يجوبون صحراء الجزيرة العربية طولاً وعرضاً، يوافوننا خارج حدود الزمان والمكان بشتى الأخبار؛ فالأدبُ عامةً – والشعرُ خاصةً – حقاً مرآة المجتمع.

وإن نظرنا في هذه المرآة نرى ما كان فإنّا واقفون على صور شتى تُسلك فيما نحن فيه من الاستبداد؛ إذ إن ما اشتُهر من مكانة الشاعر في قومه لا تعطيه حصانةً كاملةً دائماً.

فمن ضحايا الاستبداد في الجاهلية الشاعر عبيد بن الأبرص، الذي لم يكن من ذنبه إلا أن طلع على الملك المستبد المنذر بن ماء السماء في يومٍ ابتدع تسميته يومَ البؤس؛ وهذه بدعة غليظة خرج بها بعض المستبدين عندما تغلي في رأسه حمّى العظمة والمُلك، فيستعبد واحدٌ منهم الناس، وآخر يفترع النساء، ومستبد مجنون كهذا يعبث بالأيام يغيّر فيها لفرط استبداده وحماقته، فيبتدع يومَين في السنة يُعرفان بيوم بؤس ويوم نعمة، فكان إذا خرج يوم بؤسه يذبح فيه أولَ مَن يلقاه كائناً من كان، وإذا خرج في يوم نعمته يصل أول مَن يلقاه ويحبوه ويُحسن إليه. فعثر القدر بالشاعر المنكوب عبيد بن الأبرص، وخرج على الملك في يوم بؤسه، فلم يشفع له ما عُرف عنه من الشاعرية وما كساه الملك المنذر ذاته من المديح، ليكون القرار الجائر بقتله. ولفرط استبداده وجبروته واستخفافه بالدماء بينما أوقف الشاعرَ ليقتله استنشده؛ لعله يقول شيئاً يدفع به الموت عن نفسه ويستعطف قلب المستبد المجرم، فيأبى الشاعر أن يذل ويخضع، فيقول[1]:

واللهِ إنْ مِتُّ مَا ضرَّنِي وإنْ عِشْتُ مَا عِشْتُ في واحِدَه

فَأَبلِغْ بنِيَّ وأَعمَامَهم بأنَّ المَنَايَا هي الوَارِدَه

لها مُدَّةٌ فنُفُوسُ العِبَادِ إليها وإنْ كَرِهَتْ قاصِدَه

فَلَا تَجْزَعُوا لحِمَامٍ دَنَا فلِلموتِ مَا تَلِدُ الوالِدَه

فَواللهِ إنْ عِشْتُ مَا سَرَّنِي وإنْ متُّ مَا كانَتِ العائِدَه

فيقضي الشاعر ضحيةً لاستبداد الملك دون أن يرضى بيع كلماته الحرّة في سوق الذلّ.

غير أن أكثرَ ما بقي لنا في ذاكرة شعرنا الجاهلي مما يجسّد الاستبداد الفكري وقضى ضحيتَه الشعراءُ قصةُ طرفة بن العبد والمتلمس مع الملك عمرو بن هند. والقصة كما ترويها كتب الأدب لا تخرج عن خلاف لهما مع عمرو بن هند، كان لهما فيه هجاء لاذع أضمره في نفسه ولم يبدِه لهما، ولأنه خشي عاقبة قتلهما عنده أرسلهما بصحيفة ادّعى أن

1- ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق حسين نصار، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2004: 62.

فيها مكافأة لهما ثم جرت بعدهما في العرب باسم (صحيفة المتلمّس)[1]، وفيهما حقيقةً أمرٌ منه لوالي البحرين أن يقتلهما، فشعرَ المتلمّس بذلك ففتح صحيفته في الطريق ووجد ما ظنّ من الخديعة، وأبى طرفة الشاب المتفجّر حيويةً وحماسةً أن يفتح رسالته، فمضى نحو حتفه بقدمَيه وقضى شهيد الكلمة الحرّة في زمن الاستبداد[2]. فذلك قول المتلمّس[3]:

مَنْ مُبْلِغُ الشُّعراءِ عَنْ أَخَوَيهِمُ ... خَبراً، فَتُصدِّقُهم بذاك الأَنْفُسُ

أَودَى الذي عَلِقَ الصَّحيفةَ منهما ... وَنَجا حِذَارَ حِبَائِهِ المتلَمِّسُ

أَلْقَى صَحيفَتَه ونجّتْ كَورُه ... عَنْسٌ مُداخِلة الفِقَارة عِرْمِسُ

أَلقِ الصَّحيفةَ لَا أَبَا لَكَ إنَّه ... يُخْشَى عليكَ مِنَ الحِبَاء النّقرسُ

وتَرَكْتُ حيَّ بني ضُبَيعةَ حَشيةً ... أنْ يُوتَرُوا بِدَمِي وجلِدي أَمْلَسُ

في هذه القصيدة والتي بعدها يحكي الشاعر ما وقع له ولطرفة بن العبد، وكيف نجا لأنه فتح الرسالة، في حين رفض طرفة فضّ الرسالة ووثق بالملك فلقي حتفه؛ فلا ثقة عند الشاعر بمستبدّ، لاسيما وهو

يعلم ما قاله بحقه ويعلم حقد الملوك وضيقهم بمن ينتقدهم، فضلاً عمن يهجوهم. ولأنه يعرف الملك المستبد وبطشه هرب منه، لكنه لم يلجأ لقبيلته، فقد يوقع به وبها الملك، فصدح لنا بصوته الذي بلغنا عبر السنين أنه يترك أهله مضطراً إيثاراً لسلامتهم؛ حتى لا يأخذهم الملك المستبد بجريرته كما هو دأب المستبدين.

ويكأنّ المتلمّس لا يغيب عنه ما جرى فيقول[4]:

عَصَاني فَمَا لَاقَى الرَّشَادَ وإنَّما ... تَبيَّنَ مِنْ أَمْرِ الغَوِيّ عَواقِبُه

فَأَصبَحَ محمولاً عَلَى ظَهْرِ آلةٍ ... يَمُجّ بَجَيعَ الجَوفِ منه تَرَائِبُه

1- انظر: الأغاني للأصفهاني: 260/24، وجمهرة الأمثال للعسكري: 579/1، ومجمع الأمثال للميداني: 399/1.

3- انظر في قصة طرفة ومصرعه: ديوان طرفة بن العبد: تحقيق علي الجندي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط1، 1958م: 11، ونوادر المخطوطات في (من قُتل غيلةً) تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991م: 230/2.

4 – ديوان المتلمس الضبعي: تحقيق حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، 1970م: 177، وانظر: الشعر والشعراء: 177/1.

1 – ديوان المتلمس: 177.

بهذا التصوير المؤلم للمصير الأسود الذي رسمه المستبد لطرفة الشاعر الشاب، وقد وثق بكلام الملك ورفض نصيحة صاحبه، فانتهى به الأمر محمولاً جثةً هامدةً فوق آلة حدباء.

فصحيح أنه نجى وقضى صاحبه، لكنه خسرَ صاحبه ووطنَه، فلجأ إلى أرض غير أرضه وأهلٍ غير أهله، يقول[1]:

أَطردتَني حَذَرَ الهِجاءِ وَلَا ... واللّاتِ والأَنصابِ لا تَئِلُ

شَرُّ المُلُوكِ وشرُّها حَسَباً ... في الناسِ مَن عَلِمُوا ومَنْ جَهِلُوا

الغَدْرُ والآفاتُ شِيمَتُه ... فافْهَمْ؛ فعُرقوبٌ له مَثَلُ

فهذا هو النفي عن الوطن من أجل الكلمة، والبيت الأول صريح بهذا: نفيتني خوفَ هجائي. وفيما بعد لا نجده يخطب ودّ الملك المستبد ليعفو عنه، بل يحلف ألا يسكت عن هجائه ويمضي في النيل منه وذمّه. ويقول[2]:

أمّي شَأَميةٌ إذْ لا عِرَاقَ لنا ... قوماً نَودُّهم إذْ قَومُنا شُوسُ

لَن تَسْلُكِي سُبَلَ البَوبَاةِ مُنْجِدَةً ... ما عاشَ عَمرٌو ومَا عُمِّرتَ قَابُوسُ

آليتَ حَبَّ العراقِ الدَّهرَ آكلُه ... والحَبُّ يَأكلُهُ في القَريةِ السُّوسُ

وفيه تأكيد معنى النفي واليمين من الملك المستبد أن يحرمه من خيرات بلاده كما حرمه من أرضها ومائها، فيأبى عليه هذه ويسخر منه أنه يأكل من خيرات بلاده وهو في منفاه في الشام، وهذا يدل على طول النفي وطول الحرب الكلامية بين الشاعر والملك دون تراجع من الشاعر عن موقفه. ويقول في منفاه[3]:

إنَّ الحَبيبةَ حُبُّها لم يَنْفَدِ ... واليأسُ يُسْلِي، لَو سَلَوتُ، أَحَا دَدِ

قَد طَالَ ما أَحبَبْتُها ووَدِدتُّها ... لَو كانَ يُغْنِي عنكَ طُولُ تَوَدُّدِ

إنَّ العِراقَ وأهلَه كانُوا الهَوَى ... فإذَا نَأَى بي ودُّهُم فَلْيَبعُدِ

فإذَا حَلَلتُ ودونَ بَيتِي غاوةٌ ... فابرُقْ بأرضِكَ ما بَدَا لك وارعُدِ

---

2 - ديوان المتلمس: 42، ونحوه في: 92، و134.

3 - ديوان المتلمس: 92، وانظر: الشعر والشعراء: 180/1.

1- ديوان المتلمس: 133.

والبيت الثاني تأكيد طول النفي والغربة عن الوطن الحبيب على قلب الشاعر مع استمراره في تحدّي الملك المستبد.

وأما شريك المتلمّس في المأساة الشاعر الشاب طرفة بن العبد فقد كان ضحية للاستبداد منذ صغره؛ فأولاد عمومته أبَوا أن يقسموا له من ميراث أبيه الذي مات وهو غلام، فصرخ[1]:

مَا تَنظُرونَ بحقِّ وَردةَ فِيكُمُ صِغرُ البَنُونِ ورَهْطُ وَردَةَ غُيّبُ

فالذي جرّأ أقاربه على أكل مال اليتامى طرفة وإخوته أنهم صغار، وأن أمّه وردة غريبة في قوم أبيه وأهلها بعيدون. فكان هذا أول سوطٍ للاستبداد يجلد ظهر طرفة، ويمضي الشاب الشاعر فتكون له حظوة عند الملك، دون أن يقفه آداب السلاطين والخضوع، فيتأخر عليه الملك ويزدريه، فبينا هو يمدح الملك ويطري له القول غضب فانقلب مدح هجاءً لاذعاً، فيقول في عمرو بن هند الملك المستبدّ الذي اشتهر بمضرّط الحجارة لشدته وغلظته، كان له يوم (نُعمى ويوم بُؤسى) ففضح طرفة الشاعر الأبيّ حماقته وظلمه بقوله[2]:

فَلَيتَ لَنَا مَكانَ الملكِ عَمْرٍو رَغُوثاً حولَ قَبَّتِنا تَخُورُ

لَعَمْرُكَ إنَّ قابوسَ بنَ هِنْدٍ لَيْخِلطُ مُلكَه نَوكٌ كَثِيرُ

قَسمْتَ الدَّهرَ في زَمنٍ رَخِيٍّ كَذَاك الحُكمُ يَقصِدُ أو يَجُورُ

فَلَمَّا أنْ أَنخْتُ إلى مَلِيكٍ مَسَاكِنُهُ الخَورنَقُ والسَّدِيرُ

لِيُنجِزَ لي مَوَاعدَ كَاذِباتٍ بِطَيِّ صَحِيفةٍ فيها غُرُورُ

فَأَوعدَني فأَخلَفَ ثُمَّ ظِنّي وبِئسَ خَليقةُ الملكِ الفُجُورُ

فكل ذلك أنه أنظرَه وتأخر عليه، مما لا يليق بالملوك، فأعلن طرفة سخطه وإنكاره هذا، وتابع ففضح ممارسات ذاك الملك المستبدّ، لكن هذا الهجاء اللاذع وإباء الظلم لا يناسب الملوك لا يكون فيمن يرونهم الملوك للوقوف بأبوابهم ونيل عطاياهم، فلما أن بلغ هذا الهجاء مسامع هذا المستبد أصدر فرماناً بقتل طرفة وصاحبه المتلمّس، لكنه خشي على صورته – على عادة الحكّام – فأرسلهما بالصحيفة كما مرّ. ولمّا أن وقع ما القدر به ورأى بعينه أوان حتفه أرسلها مدويةً[3]:

2- ديوان طرفة: 23.

3 - ديوان طرفة: 92.

1 - ديوان طرفة: 209، وانظر: الحماسة البصرية: 135/1.

أَبَا مُنذرٍ أَفنَيتَ، فاستَبقِ بعضَنَا حَنَانَيكَ بعضُ الشّرّ أَهْوَنُ مِن بَعضِ

أَبَا مُنْذِرٍ كانتْ غُروراً صَحِيفتي ولم أُعطِكُم في الطَّوعِ مَالي ولا عِرضِي

رَدَيتُ، ونجّى اليَشكريَّ حِذارُه وحادَ كَمَا حادَ الأزبُّ عن الدَّحْضِ

فحذر المتلمّس أنجاه من شرّه أراده المستبدّ لكليهما، وإن يكن في هذه الأبيات شيء من الاستعطاف للملك ألا يفرط في القتل، لكنه يعود ليصرخ في قومه[1]:

فَمِيلُوا عَلَى النُّعْمَانِ في الحَرَبِ مَيْلَةً وكَعبِ بنِ زَيدٍ فاشْغَلُوه عَنِ المَحْضِ

هُمَا أَوردَانِي الموتَ عَمْداً وجرَّدَا عَلَى الموتِ خَيلاً ما تملُّ مِنَ الرَّكْضِ

فالذي أمر بموتي والذي قام بالتنفيذ سواء في الإجرام، فالحاكم المستبد له أيادٍ يبطش بها، ومن أراد الثأر لزم أن يضرب الظالم ومن أعانه على ظلمه واستعمله فيه.

ومن النفي عن الوطن في الجاهلية ما رواه الأزرقي في أخبار مكة في خبر ولاية خزاعة مكة بعد جرهم[2]: أن عمرو بن لُحيّ كان أول من غيّر الحنيفية دين إبراهيم وأقام الأصنام، وكان بقي في مكة رجلٌ جرهميّ ما زال على الحنيفية دين إبراهيم، فلما غيّر ابن لحي وبدّل قال له:

يَا عَمْرُو لَا تَظْلِمْ بِمَكَّةَ ... إِنَّهَا بَلَدٌ حَرَامْ

سَائِلْ بِعَادٍ أَيْنَ هُمْ ... وَكَذَاكَ تَحْتَرِمُ الْأَنَامْ

وَبَنِي الْعَمَالِيقِ الَّذِينَ ... لَهُمْ بِهَا كَانَ السَّوَامْ

فما كان من عمرو بني لُحي إلا أن نفاه عن مكّة، فخرج الجرهميّ نحو آطام المدينة، ثم هاج به الشوق لمكة فقال:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً ... وَأَهْلِي مَعًا بِالْمَأْزِمَيْنِ حُلُولُ

وَهَلْ أَرَيَنَّ الْعِيسَ تَنْفُخُ فِي الْبَرَا ... لَهَا بِمِنًى وَالْمَأْزِمَيْنِ ذَمِيلُ

---

2 - ديوان طرفة: 207.

أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي، تحقيق: رشدي الصالح ملحس، دار الأندلس، بيروت، ط3، 1389هـ-1969م: 165/1.

مَنَازِلُ كُنَّا أَهْلَهَا لَمْ تَحُلْ بِنَا ... زَمَانٌ بِهَا فِيمَا أَرَاهُ تَحُولُ

مَضَى أَوَّلُونَا رَاضِيِينَ بِشَأْنِهِمْ ... جَمِيعًا وَغَالَتْنِي بِمَكَّةَ غُولُ

من قديم الأخبار التي تُروى، فإن صحت فهي من الشواهد القليلة التي حفظها لنا التراث عن استبداد ديني فكري في الجاهلية؛ لم نجدها إلا عند مبعث النبي صلى الله عليه وسلم وإجلاء قومه له عن مكة، وهذا حال المستبدين يضيقون بالكلمة الحرة ويضعفون عن مواجهتها بحرية، فيرفعون سَوط الاستبداد في وجوه من يجرؤ على مواجهتهم بالكلمة؛ أبى أن يقرّ الخطأ وتغيير دين إبراهيم، فصدع في وجه المستبدّ، فنفاه عن أرضه لأرض أخرى لا تعرفه ولا يعرفها؛ وكم نجدها اليوم!!

ومن قليل ما وصلنا عما كان في أول الدعوة الإسلامية قول أبي أحمد الأسدي[1]:

أَقَطَعْتَ عَهْدَكَ بَيْنَنا والخَازِياتُ إلى نَدَامَهْ

أَلَا ذَكَرْتَ لَيَالِي الـ عَيشِ التِي فيها القَسَامَهْ

عَقْدِي وعَقْدُك قائِمٌ أَلَّا عُقوقَ ولا أَثَامَهْ

أَبْلِغْ أبا سُفيانَ عَنْ أَمْرٍ عَوَاقِبُهُ نَدَامَهْ

دارُ ابنِ عمِّكَ بِعْتَها تَقْضِي بها عَنكَ الغَرَامَهْ

اذْهَبْ بها اذْهَبْ بها طُوِّقْتَها طَوقَ الحَمَامَهْ

وقد جاء في مناسبة الأبيات: هاجر أبو أحمد إلى المدينة، فعمد أبو سفيان إلى داره فباعها من ابن علقمة العامري بأربعمئة دينار، فقال أبو أحمد الأبيات. وهذا من الاستبداد في إجبار الناس على ترك موطنهم لاعتناقهم ديناً يخالف، ثم يستولي المستبد على أموال الناس ولو كانوا ذوي قربى.

فالاستبداد الفكري الذي قضى الشعراء ضحيتَه في الشعر القديم لم يقف عند طرفة والمتلمّس وإن كانا قد صرخا عن ألمٍ شديدٍ من استبداده، وقد شاركهما في هجاء المستبد الذي أوقع بهما غيرهما من الشعراء كانوا أحسن حظّاً منهما فلم تنل يد الاستبداد منهم ما نالت من المتلمس وطرفة[2]. فالهجاء فنّ من فنون الشعر

---

2 – ديوان بني أسد: محمد علي دقة، دار صادر بيروت – *ط1* 1999: 417.

1 – انظر: صورة الملك عمرو بن هند في الشعر الجاهلي، حمدي منصور، مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية) المجلد 20(2) سنة 2006م.

التي قد تودي بصاحبها[1]، وإن لم يقع فيه بملكٍ أو أميرٍ؛ فسالم بن دارة الغطفاني وقع في هجاء فزارة وأقذع، فدفع حياته ثمن هجائه، إذ إن المهجوَّ لم يرَ خيراً من السيف يمحو به عار هجائه، فقتلَه. فمن ذلك قوله:

أَبْلِغْ فَزَارَةَ أَنِّي لَنْ أُصَالِحَهَا حَتَّى يَنِيكَ زُمَيْلٌ أُمَّ دِينَارِ

وزُميل هو ابن أمّ دينار، وكان إمعاناً في هجائه يقول له حينما يقابله: يا زميل ألا تفعل بأمك حتى أصالح قومي؟! حتى سمّه الفزاريّ واغتاله[2]. وفيه كان المَثَل: محا السيف ما قال ابن دارة أجمعا، فهو من قول الكميت[3]:

أَبَتْ أُمُّ دِيْنَارٍ فأصبَحَ فَأصْبَحَ فَرْجُهَا حَصَاناً وَقُلِّدْتُمْ قَلاَئِدَ قوزعا

خُذُوا العَقْلَ إنْ أعْطَاكُمْ العَقْلَ قَوْمُكُمْ وَكُونُوا كَمَنْ سِيْمَ الهَوَانَ فأَرْتَعَا

وَلاَ تُكْثِرُوا فِيهِ الضَّجَاجَ فَإِنَّهُ مَحَا السَّيْفُ مَا قَالَ ابْنُ دَارَةَ أجْمَعَا

وهذا كما قال أبو هلال في كلامه على المثل: (يُضرب مثلا للرجل يجازى على المكرُوه بِأَكْثَرَ منه)[4]؛ فإن كان الشاعر قد أخطأ في هجائه فإن قاتله لم يكن مصيباً في قتله، ليقضي شاعر آخر ضحيةً من ضحايا الاستبداد الفكري.
وما عظم الجزاء هذا على الهجاء إلا لأن العرب أمّة الشعر، ولأن الشعر إن مشى في الناس مدحاً أو هجاءً فلا يُمحى، وإن قدر السيف فمحا ابن دارة لكنه أعجز من أن يمحو ما قاله.
وحادثة أخرى أشد غرابة من حوادث الهجاء ضحيته امرأة، اكتوى قلبها بنار الغَيرة بعد أن تزوّج زوجها امرأة أخرى، فنالت منه ومن قومه تهجوهم، تلك هي غضوب إحدى بني ربيعة بن مالك بن زيد مناة بن تميم، وكانت شاعرةً، وكانت ناكحاً في بني طهية ثم في بني سبيع، فكانت مع زوجها زماناً، ثم تزوج عليها امرأةً منهم، فأولعت بهم تهجوهم، فقالت:

---

2 – انظر: الشاعر مقتله بين فكّيه، مجلة كلية التربية – جامعة واسط، العدد 22، سنة 2016م.

3 – نوادر المخطوطات: 174/2، وانظر في سالم بن دارة وترجمته واغتياله: الشعر والشعراء: 389/1، والإصابة في تمييز الصحابة: ابن حجر العسقلاني، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1412هـ-1992م: 204/3، وخزانة الأدب ولب لباب لسان العرب: عبد القادر بن عمر البغدادي، تحقيق: عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط2، 1979م: 141/2.

4 – انظر: كتاب الأمثال: أبو عبيد القاسم بن سلّام، تحقيق: عبد المجيد قطامش، دار المأمون للتراث، دمشق، ط1، 1980م: 322، ومعجم الشعراء: المرزباني، تحقيق: فاروق أسليم، دار صادر، بيروت، ط، 1،2005م: 347، والشعر والشعراء: 390/1، وجمهرة الأمثال: 288/2، ومجمع الأمثال: 279/2.

1 – جمهرة الأمثال: 288/2.

بَنُو سُبَيع زمع الكِلَابِ لَيسُوا إلى سَعْدٍ ولا الرّبَابِ
ولا إلى القَبَائِلِ الرِّغَابِ كَمْ فيهمُ مِن طفلَةٍ كَعَابِ
وَكْعَاءَ ذاتِ ركبٍ قَبقَّابِ خَبِيثةِ المشعَرِ في الثيابِ
تَتبعُ كلَّ عَزْبٍ وَثَّابِ[1]

فأوعدها رجالٌ منهم، فلم تأبه لهم ونالت منهم تهجوهم. فلما سمعوا ذلك مشوا إليها، فضربوها، فقُتلت.

حتى المرأة دفعت ثمن الكلمة وما أقساه من ثمن! إنه الحياة. دفعت حياتها ثمن هجاء قالته حمية منها وغيرة نسوية، فضاق بها أناس محسوبون رجالاً!

أما وقد وقع سوط الاستبداد في ظهر المرأة العربية في الجاهلية على رقّتها وشدة حساسيتها عندهم، فوق أنها لم تخرج بغير الكلام فوق المستبدين؛ فلا عجب أن نقف على حادثة أخرى تحكي الاستبداد الفكري ضد المرأة عبر التضييق عليها حتى في القول، فقد روى الأصفهاني[2]:

أن يزيد بن عبد المدان ومعه بنو الحارث بن كعب اليمنيون أغاروا على بني عامر، فأسر يزيد عامر بن مالك ملاعب الأسنّة وأخاه عبيدة (الوضّاح) بن مالك، ثم أنعم عليهما وأطلقهما، فلما مات يزيد بن عبد المدان قالت زينب بنت مالك أخت ملاعب الأسنّة ترثيه:

بَكَيتُ يَزيدَ بنَ عَبدِ المدَانِ حلَّتْ به الأرضُ أثقالَها
شَريكُ المُلُوكِ ومِنْ فَضلِهِ يُفضّل في المجدِ أَفضَالُهَا
فَكَكْتَ أُسارَى بني جَعْفَرٍ وكِنْدَةَ إذْ نِلتَ أَقوالَهَا
ورهطَ المجالِدِ قد جلّلتْ فَوَاضلُ نُعْمَاكَ أَجبالَهَا

فلامَ بنو عامر زينب بنت مالك على بكائها يزيد بن عبد المدان ورثائها له، لأنه يمانيّ وهم نزاريّون، فقالت زينب:

أَلَا أيُّها الزَّاري عَلَيّ بأَنّني نِزاريّة أَبْكِي كَريماً يَمَانِيا
وَمَالي لا أَبْكِي يَزيدَ وردَّني أَجُرُّ جديداً مِدْرَعي ورِدَائِيا

وهذا من التحجير على الشاعر في القول؛ فليس له أو لها مدحُ مَن يخالف قومهم أو مَن يرونه عدواً لهم، فيحجرون عليهم أن يقولوا فيما لا يوافق مذهب القبيلة السياسي.

بل إنّ مَن امتهنَ مدحَ الملوك وخلص أكثر شعره لهم كالنابغة الذبياني لم يكن له أن يمتدح سوى المناذرة، لذا وجدناه في اعتذارياته يبرر لأسياده المناذرة قليلَ ما قاله في الغساسنة عندما لجأ إليهم، ففي قصيدته:

أتاني أبيت اللعنَ أنك لمتني وتلك التي أهتمّ منها وأنصبُ

يقول:

وَلَكنَّني كُنتُ امرأً لي جانبٌ مِنَ الأرضِ فيه مُستَرَادٌ ومَذْهَبُ

---

2 – نوادر المخطوطات: 292/2، وانظر: أنساب الأشراف للبلاذري: أحمد بن يحيى البلاذري، تحقيق: محمود الفردوس العظم، دار اليقظة العربية، دمشق، 1997م: 283/11.

3 – انظر: الأغاني للأصفهاني: 21/12، وأشعار العامريين الجاهليين: 87.

مُلوكٌ وإخوانٌ إذا ما أتيتُهُم أُحكَّم في أَمْوَالهم وأُقَرَّبُ
كَفعلِكَ في قومٍ أراكَ اصطَنعتَهُم فلم تَرَهم في شُكرِ ذلكَ أَذنَبُوا

فهو في موقف المعتذِر المبرِّر لما خرج منه في مديح الغساسنة؛ والأمر كما يبيّنه لملك المناذرة أنه لا يعدو شكرهم على خيرٍ فعلوه له، كما يشكرك من يفعل إليه معروفاً، ويكمل:

فَلا تَتْرُكْني بالوَعِيدِ كَأنّني إلى الناسِ مَطلِيّ به القَارُ أَجْرَبُ
ألم تَرَ أنّ اللهَ أعطاكَ سَورةً تَرَى كلَّ مَلْكٍ دونَها يَتذَبذَبُ

فالمهم أن تقبل اعتذاري وتُعيدني إلى جانبك، فأنا للناس دون قَبولك عذري جمل أجرب يتحاماه الناس، وإن كنتُ امتدحتُ ملكاً غيرك لمعروف له عندي فأنت الملك الذي تصغر أمامه الملوك[1].

وليس هذا حال النابغة الذبياني وحده، بل أكثر من دخلوا على الملوك وعاشوا نعيم القصور في صحراء الجزيرة العربية باعوا موهبتهم وشعرهم للملك المستبد[2]، ومن خرج عما يريد كان مصيره مصير المتلمس وطرفة.

خاتمة:

فالاستبداد الفكري وإن كنا نعيش منه ألواناً شتى هذه الأيام لكنه قديم؛ فسقراط أعدمته أثينا عام 399 قبل الميلاد بتهمتَي الهرطقة وإفساد الشبيبة، فتم الحكم عليه بالإعدام بسبب آرائه بجرعة سمّ مع تصويت بالأغلبية على مقتله. وفي منتصف القرن السابع عشر للميلاد تم نفي ابن رشد العلامة المسلم ليموت كسير القلب. وفي القرن السابع عشر أيضاً أعلنت الكنيسة لعن الفيلسوف باروخ إسبينوزا ونفيه مع تحريم الاقتراب منه وقراءة كتبه، وفي بداية عام 1600 للميلاد تم إحراق المفكر الإيطالي (جيوردانو برونو) حياً في ساحة عامة[3].

لذا لا يبعد ما قاله الجاحظ قديماً بعدما رأينا ضريبة الكلمة الحرة في الجاهلية، يقول: (وإذا تأملتَ أخبار الماضين لم تُحصِ عددَ مَن قتلَه لسانه وكان هلاكه في كلمةٍ بدرت منه)[4].

---

1 – ديوان النابغة الذبياني: تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط3: 72. وانظر: صور الخوف في اعتذاريات النابغة الذبياني، د.سلامة عبد الله السويدي، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية – جامعة الكويت، الحولية 26 سنة 2005م.

2 – انظر: شعراء إمارة الحيرة في العصر الجاهلي: عبد الفتاح الشطي، دار قباء، القاهرة، 1998م: 387، 396.

3– رسالة في الاستبداد: خالص جلبي، مركز الناقد الثقافي، دمشق، 2009م: ص74.

4– رسائل الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1979م: 170/1.

المصادر والمراجع

- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار: أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي، تحقيق: رشدي الصالح ملحس، دار الأندلس، بيروت، ط3، 1389هـ-1969م.
- أديان العرب في الجاهلية: محمد نعمان الجارم، مطبعة السعادة، مصر، 1341هـ-1933م.
- أساس البلاغة: العلّامة جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (538هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1419هـ - 1998م.
- الاستبداد الديمقراطي: عصمت سيف الدولة، دار المستقبل العربي للنشر، 1998م.
- الاستبداد الديني، د.محمد بريش، الألوكة.
- الاستبداد في نظم الحكم العربية المعاصرة: مركز دراسات الوحدة العربية، تحرير: علي خليفة الكواري، بيروت، ط2، 2006.
- أسجاع الكهان الجاهليين وأشعارهم جمع وتحقيق ودراسة: ياسين عبد الله جمول، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، الإمارات العربية المتحدة، 2013م.
- أشعار العامريين: عبد الكريم يعقوب، دار الحوار، اللاذقية، ط1، 1982م.
- الإصابة في تمييز الصحابة: ابن حجر العسقلاني، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1412هـ-1992م.
- الأغاني، أبو الفرج علي بن الحسين الأصبهاني (356هـ)، إحياء التراث العربي [مصورة عن طبعة دار الكتب]، بيروت، د.ت.
- أنساب الأشراف للبلاذري: أحمد بن يحيى البلاذري، تحقيق: محمود الفردوس العظم، دار اليقظة العربية، دمشق، 1997م.
- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: محمود شكري الآلوسي البغدادي (1342هـ)، عُني بشرحه وتصحيحه وضبطه: محمد بهجة الأثري، دار الكتب العلمية، بيروت، 2009م.
- بين السلطة والتسلط دراسة تحليلية: بحث للدكتور علي أسعد وطفة، مجلة الفكر السياسي، اتحاد الكتاب العرب بدمشق، العدد 3، 1998م.
- البيئة الإدارية في الجاهلية وصدر الإسلام: محمد محمود فرغلي، سلسلة دعوة الحق، السنة الثانية، رجب 1402 هـ.
- تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك): أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (310هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط2، 1387هـ-1967م.

- تاريخ الفكر الديني الجاهلي: د. محمد إبراهيم الفيُّومي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1420هـ- 1999م.
- تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية مَن حلَّها مِن الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها: الإمام الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي المعروف بابن عساكر (571هـ)، تحقيق: علي شيري، دار الفكر، بيروت، 1415هـ-1995م.
- تفسير القرآن للسمعاني: أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزى السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي (المتوفى: 489هـ)، تحقيق: ياسر بن إبراهيم، دار الوطن، السعودية، ط1، 1997م.
- تفكيك الاستبداد دراسة مقاصدية في فقه التحرر من التغلب: د.محمد العبد الكريم، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط1، 2013م.
- تهذيب اللّغة: أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (370هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، نسخة مصوّرة، د.ت.
- الجامع الصحيح (صحيح البخاري): لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (256هـ)، تحقيق: محب الدين الخطيب، وترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، المطبعة السلفية، القاهرة، ط1، 1400هـ.
- الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي): أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (671هـ)، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي وجماعة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1427هـ-2006م.
- جدلية اللغة والفكر دراسة في مفهوم الكلام عند الآمدي في ضوء الدراسات اللغوية المعاصرة: للدكتور حامد كاظم عباس في مجلة كلية الآداب بجامعة بغداد العدد 97.
- جذور الاستبداد قراءة في أدب قديم: عبد الغفار مكاوي، مجلة عالم المعرفة، الكويت، العدد 192، 1994م.
- جمهرة الأمثال: الشيخ أبو هلال العسكري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم – عبد المجيد قطامش، دار الجيل، بيروت، ط2.
- حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها: عبد الرحمن السلمي، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، 2009م.
- الحماسة البصرية: علي بن أبي الفرج بن الحسن البصري (ت 656هـ)، تحقيق: د. عادل سليمان جمال، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر، د.ت.
- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب: عبد القادر بن عمر البغدادي، تحقيق: عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط2، 1979م.
- ديوان المتلمس الضبعي: تحقيق حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، 1970م.
- ديوان النابغة الذبياني: تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط3.

- ديوان أمية بن أبي الصلت، جمع وتحقيق ودراسة: عبد الحفيظ السطلي، دمشق، 1974م.
- ديوان بني أسد: جمع وتحقيق: محمد علي دقة، دار صادر بيروت – ط1 1999.
- ديوان طرفة بن العبد: تحقيق علي الجندي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط1، 1958م.
- ديوان عبيد بن الأبرص: تحقيق حسين نصار، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 2004م.
- رسالة في الاستبداد: خالص جلبي، مركز الناقد الثقافي، دمشق، 2009م.
- رسائل الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1979م.
- الروض الأُنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، لأبي القاسم السُّهيلي (581هـ)، قدّم له وعلَّق عليه: طه عبد الرؤوف سعد، دار الفكر، بيروت، 1428هـ-2008م.
- السياسة لأرسطوطاليس: ترجمه من الإغريقية إلى الفرنسية: بارتلمي سانتهيلير، نقله إلى العربية: أحمد لطفي السيد، ضمن سلسلة (من الشرق والغرب)، القاهرة، د.ت.
- الشاعر مقتله بين فكّيه، مجلة كلية التربية – جامعة واسط، العدد 22، سنة 2016م.
- شاعرات العرب: بشير يموت، دار القلم العربي، حلب، ط1 1419 هـ _ 1998م.
- شعر الأخطل: صنعة السكري، تحقيق: فخر الدين قباوة، دار الفكر – دمشق، ط4، 1996م.
- الشعر القرشي في القرون الثلاثة الأولى: مختار الغوث، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث ط1 1427هـ- 2007م.
- شعر عمر بن أبي ربيعة: تحقيق محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، 1960م.
- الشعر والشعراء: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينَوري (276هـ)، تحقيق: أحمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ط2، 1427هـ-2006م.
- شعر يهود في الجاهلية وصدر الإسلام، تحقيق ودراسة: د. عبد الله جبريل مقداد، دار عمار، عمّان، ط1، 1420هـ-1999م.
- شعراء إمارة الحيرة في العصر الجاهلي: عبد الفتاح الشطي، دار قباء، القاهرة، 1998م.
- شعراء تغلب في الجاهلية: أخبارهم وأشعارهم، تأليف: د.علي أبو زيد، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى، 2012م.
- شعراء طيئ في الجاهلية والإسلام أخبارهم وأشعارهم: أحمد حالو، دار الكتب الوطنية- أبو ظبي، ط1 سنة 2012م.

- شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، نشوان بن سعيد الحميري (573هـ)، تحقيق: حسين عبد الله العمري، ومطهر بن علي الإرياني، ويوسف محمد عبد الله، دار الفكر، دمشق، ط1، 1420هـ-1999م.
- الصِّحاح (تاج اللغة وصِحاح العربية)، إسماعيل بن حمّاد الجوهري (393هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1990م.
- صور الخوف في اعتذاريات النابغة الذبياني، د.سلامة عبد الله السويدي، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية – جامعة الكويت، الحولية 26 سنة 2005م.
- صورة الملك عمرو بن هند في الشعر الجاهلي، حمدي منصور، مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية) المجلد 20(2) سنة 2006م.
- الطاغية دراسة فلسفية لفصول من الاستبداد السياسي: إمام عبد الفتاح إمام، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد 183، 1994م.
- طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد: عبد الرحمن الكواكبي، دار الصحوة، القاهرة، ط1، 2016م.
- عبد الرحمن الكواكبي جدلية الاستبداد والدين: حسن السعيد، الكتاب الخامس من سلسلة رواد الإصلاح، إيران، ط1، 200م.
- علاقة اللغة والفكر بين اللغويين العرب الأقدمين والدرس اللغوي الحديث، لثاني بابيو يانا في مجلة بخت الرضا العلمية العدد السادس لعام 2013.
- العلاقة بين اللغة والفكر، للدكتور كريمة الجابي، في شبكة الألوكة بتاريخ 2015/10/7.
- العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة المعاصرة: د.سفر الحوالي، دار الهجرة.
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري: الإمام بدر الدين العيني، دار الفكر، دمشق.
- الفخري في الآداب السلطانية: محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي، تحقيق: عبد القادر محمد مايو، دار القلم العربي، بيروت، 1997م,
- في الطغيان والاستبداد والديكتاتورية بحث فلسفي في مسألة السلطة الكلية، دولة خضر خنافر، دار المنتخب العربي، بيروت، ط1، 1995م.
- القاموس السياسي ومصطلحات المؤتمرات الدولية: إعداد: س.م.لحام وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004م.
- القاموس المحيط: القاموس المحيط: الفيروزآبادي (817هـ)، ضبط وتوثيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، بيروت، 1420هـ-1999م.

- كتاب الأمالي – كتاب ذيل الأمالي والنوادر: أبو علي القالي (إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي) (356هـ)، دار الجيل، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د.ت.
- كتاب الأمثال: أبو عبيد القاسم بن سلّام، تحقيق: عبد المجيد قطامش، دار المأمون للتراث، دمشق، ط1، 1980م.
- كتاب الأوائل: أبو هلال العسكري (395هـ)، تحقيق: محمد المصري ووليد قصّاب، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1975م.
- كتاب الحيوان: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (255هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط2، 1416هـ-1996م.
- كتاب العين: الخليل بن أحمد الفراهيدي (175هـ)، تحقيق: د.مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي، دار الهجرة، قم، إيران، 1405هـ.
- كتاب المحبَّر: العلّامة الأخباري النسّابة أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي البغدادي (245هـ)، رواية أبي سعيد السكري، تحقيق: د. إيلزه ليختن شتيتر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د.ت.
- كتاب نسب قريش: المصعب بن عبد الله الزبيري (236هـ)، تحقيق: إ.ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، 1951م.
- الكتابات السياسية: الإمام محمد عبده، تقديم: محمد عمارة، وزارة الثقافة والفنون والتراث، دولة قطر، 2013م.
- لسان العرب: محمد بن مكرم بن منظور (711هـ)، دار صادر، بيروت، د.ت.
- اللغة والفكر: بحث للدكتور نوري جعفر في مجلة المدى الثقافي العدد 754 لعام 2006.
- مجمع الأمثال: أبو الفضل النيسابوري الميداني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة السنة المحمدية، مصر، 1955م.
- محاضرات في النصرانية: الشيخ محمد أبو زهرة، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء، السعودية، ط4، 1404هـ.
- المخصَّص: ابن سِيدَه (458هـ)، دار الفكر، بيروت، 1398هـ-1987م.
- معجم الشعراء: المرزباني، تحقيق: فاروق أسليم، دار صادر، بيروت، ط، 1،2005م.
- معجم اللغة العربية المعاصرة: أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2008م.
- معجم المصطلحات الاجتماعية إنكليزي فرنسي عربي: أحمد زكي بدوي، مكتبة لبنان، بيروت، 1982م.
- مفاتيح السياسة الشرعية، إبراهيم السكران، رؤى فكرية، د.ت.

- مفردات ألفاظ القرآن: العلّامة الراغب الأصفهاني (في حدود 425هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم – الدار الشامية، دمشق – بيروت، ط3، 1423هـ-2002م.
- المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام: الدكتور جواد علي، دار العلم للملايين، بيروت.
- مقاييس اللغة: لأحمد بن فارس (395هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، نسخة مصورة بدار الجيل، بيروت، د.ت.
- مقدمة ابن خلدون: تحقيق: د.علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر، 2004م.
- موسوعة السياسة: رئيس التحرير: عبد الوهاب الكيالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت
- النهاية في غريب الحديث والأثر: الإمام ابن الأثير مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري (606هـ)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، دار الفكر، بيروت، ط2، 1399هـ-1979م.
- نوادر المخطوطات: تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991م.